## الفصل الواحد والثلاثون

# حدود السهل

يقع أكثر الأقسام خطورة بين المملكة العربية السعودية واليمن ولكونه غير حصين بين ميناء كميلة الصغير للصيد والتلال الواقعة إلى الخارج من الحاجز الجبلي الرئيس حول قرية حرض اليمنية المحصنة. وقعت حرب الأسابيع الستة فوق هذا القسم من الحدود في عام ١٩٣٤م حين اندفعت القوات السعودية بقيادة الأمير فيصل داخل اليمن ومعهم بنادقهم وحركة نقلهم الآلية في طريقهم إلى ميناء الحديدة، التي دخلوها دون صعوبة. كانت بقية الحدود، التي على جانبها الشرقي رمال الربع الخالي المهيبة، صعبة الاختراق لأي من الطرفين، بينما كانت الجبال المركزية احتمال ميئوس منه لكي يُحاول جانبه.

واجه جيش الأمير سعود في الشرق، فوق الطريق الصعب لوادي نجران وروافده، مأزقاً بسبب أن العدو كان متمكناً من المداخل القليلة الحيوية التي تقود إلى داخل البلاد. إلى جانب صعوبة إمداداته فوق هذه المناطق الصعبة، على الرغم من أن بعض السيارات قد وصلت حتى الحدود عبر طريق الفيل، لم أكن قد قمت برحلتي من نجران إلى شبوة ومقاطعة الجوف حينها، وكانوا يعتقدون خطأ أن محاولة عبور قوات محمولة على السيارات على امتداد شرق الجبال ستنتهي بالفشل. نعلم الآن أنه يمكن للأمير سعود أن يصل بسهولة إلى الجوف ومأرب وتسنده قوة آلية، إلاَّ أن عمليات عام ١٩٣٤م وجدته قد وقع في شراك الجبال المستحيلة، بينما كان شقيقه الأصغر يكتسح السهل الساحلي بنصر سهل. كانت

مشكلته الوحيدة هي اختراق الحدود نفسها على شريط وادي ميدي وهو المجرى أقصى الجنوب بين المجريين الذي ينقسم داخله وادي حرض في الانبعاج من الجبال إلى السهل. يخترق المجرى الآخر أرض المملكة العربية السعودية، ويمر إلى الشمال من الموسم ويدخل البحر، كما سبق أن ذكر، عبر خليج مغشوش. ورد ذكر القلعة في حرض عند رأس هذا الوادي، وربما تعد عقبة كأداء، بينما وقفت عند النهاية البحرية للمجرى قلعة جوبا، على بعد نصف الميل إلى الغرب من المنصورية، بالإضافة إلى أن بلدة ميدي تشتمل على عدد من القصور يعود تاريخها إلى أيام حكم الإدريسي. يطلق عليها بصفة عامة اسم قلعة السيد لهذا السبب. توجد قرية محصنة في وسط مجرى وادي ميدي تسمى مشابية تنتمي إلى قبيلة بني مروان، أو المراونة. عبر الأمير فيصل في الحقيقة، عن طريق جانبي، هذه النهايات المحصنة لخط الدفاع هذا واخترق قوات العدو التي كانت تحرس المجرى بعد معركة حادة. انعزلت قريتا حرض وميدي بهذه الطريقة، واستسلمتا بعد أيام قليلة.

يجري هذا الجانب الحساس من الحدود عبر السهل من البحر إلى التلال مسافة تقارب العشرين ميلاً، منها تسعة أميال تجاه الشرق، وخمسة أميال تجاه الشمال، وستة أميال إلى الحدود السهلية عند بنر، وخمسة أميال تجاه الشمال الشرقي من حرض. كان هذا الترتيب بناءً على المعاهدة المشروطة لعام ١٩٣٤م، التي تمنع إقامة تجهيزات عسكرية أو تحصينات داخل مسافة خمسة أميال من الحدود. تركت قرية ميدي في موقعها، على الرغم من أنها الأقرب إلى الحدود، وللحاجة إليها لأسباب أخرى، ولما كان من المستحيل الإصرار على تدمير حرض، وهي مركز إداري مهم، فقد نقلت الحدود حولها لتتوافق مع اتفاقية السلام.

يمتلك هذا الخط الحدودي، إلى جانب أنه متلوٍ وفي بعض الأجزاء يصعب التعرف عليه، ضرراً آخر هو أنه يفصل أرض قبيلة واحدة بين دولتين، لم يكن ثمة مفر من هذا في حالة ميدي ووواديها وقد تركتا لليمن. يتكون قسم قبيلة بني مروان الواقع داخل الجانب السعودي من الحدود في جهة الغرب، العجبي (العجيبية) في الوسط، وقيس (جمع قيوس) بعيداً ناحية الشرق، بينما تقع على الجانب اليمني أقسام بني زيلة ومغفلي (مغافلة) بهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق، ويكون قسم بني حدَّاد بعيداً ناحية الشرق وفيما يليهم يكون قسم الجعادرة. توجد مجموعات مبعثرة في هذه الأجزاء الشرقية لتهامة عند مفرج حوض وادي حرض هي: آل حوضان في حرض نفسها مثلاً، وآل علي في قرية وعلان السعودية.

كما يوجد عنصر يسمى مخلوطة في بعض قرى الجانب الشرقي من أرض مروان على الجانب السعودي، غير أنني لست متأكداً إن كان هذا ولاء قسمي أم ولاء وصفي، يعني أناس من سلالات خليط. يستخدم اللفظ حرضي على الجانب اليمني ليعني أناس من حرض ولا يعني القسم القبلي أو تحت القسم. يوجد عنصر آخر يسمى حبة جرح ويجاري الجعادرة على الجانب اليمني، قد يكون تحت قسم الجعادرة إن لم يكن قسماً مستقلاً. وأخيراً يبدو أن أقصى قسم شرقي لقبيلة بني مروان، على الجانب السعودي وإلى الجنوب من تعشر. إنه ينتمي إلى التنابكة والتي قد تكون تحت القسم الوحيد داخل قبيلة قيس. تكون قبيلة المراوين على أساس الأرض، أهمية، ولما كان الدم أكثف من الماء، فمن الواضح أن فصلها بناء على الولاءات، ربما يكون في بعض الحالات محرجاً لواحدة أو الأخرى من الدولتين.

تغطي المقبرة التي ورد ذكرها في الفصل السابق مساحة كبيرة، مررت خلالها بأطلال بناء كبير، استخدمت في تشييده بلكات كبيرة من الصخور المرجانية. ربما كانت قلعة قديمة تسيطر على الطريق الساحلي الذي تحف صفحاته كثبان رملية متدحرجة، ويحفه على الجانب الغربي مسطح سبخي واسع، والتي لا بد أن يكون البحر قد شغلها في الأزمان القديمة.

يوضح كل ساحل تهامة هذا كيف أن البحر قد دُفع إلى الخلف بواسطة الطمي المتقدم الذي جلبته الأودية العديدة من الجبال، والتي سأقوم بزيارة مناطقها العليا في الأيام القادمة. يصعب التمييز بين القبور والمباني الأخرى، ما عدا القلعة الكبيرة، إلاَّ أن كل المنطقة كانت مغطاة بالقطع المكسرة، ويتضح أن هذا الموقع كان موطناً لمجتمع كبير، ربما كان يعيش في عشش الوتل والأعواد المألوفة هذه الأيام. وقد تكون موقعاً مبكراً مهجوراً لقرية ميدي نفسها أو لقرية الموسم، عند حافة البحر، والتي تقع الآن على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من مرسى كميلة. وجدنا في هذا الموقع عششاً قليلة مبنية من الأعواد لقرية صيد صغيرة وكانت توجد بجوارها أكواماً من بلكات مربعة من الحجارة قد تم جمعها -ربما حديثاً- لأجل بناء حاجز للماء داخل المياه الضحلة لملاءمة الصيد وللقوارب الأخرى التي تتعامل مع الموسم.

تيسر الميناء مواقع رسو ملائمة للسنابك المحلية، وذلك لأنها محمية من البحر بواسطة جزيرة صغيرة يكسوها مانجروف مزدهر (شورة) إلى عمق ٥٠٠ قدم. يفصل مجرى ضيق بين هذه الجزيرة وجزيرة الدويّمة ويصل طوله إلى ثلاثة أميال. تبعد نهايتها الشمالية إلى مسافة نصف الميل من قرية كميلة وينتمي نصف سطحها الرملي أو المغطى بالمانجروف إلى العربية السعودية والنصف الآخر إلى اليمن. تعلم

نهايتها الجنوبية بقلعة قديمة تغطي المرسى النظير الذي يقع بين طرف الجزيرة والأرض الرئيسة. ويطلق عليه اسم المرسى، كما توجد قرية صيد صغيرة على الأرض الرئيسة في مواجهتها تسمى خور تمتد من الخليج الذي يجري إلى الشرق من جزيرة الدويمة إلى أحد أحواض الموسم. يكوّن كل من هذا المنخفض والخليج الحدود الفعلية وبها أولى الأعمدة الحدودية على الشاطئ الشمالي. لا يوجد عمود حدودي على الجزيرة، والتي لا فائدة ترجى منها لأي أحد.

وصلنا سيراً على الأقدام من مرسى كميلة وعبر المسطح السبخي إلى الطريق عند الحدود الفعلية، ومعلّم دون وضوح كافٍ بحجر واحد شكله غير منتظم ويرتفع إلى تسع بوصات، موضوعاً فوق سطح السبخة بجوار الطريق. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم ٢٣٨) ويطلق عليه اسم رزم دخلة بن زهير تكريماً له، وقد كرمناه بدورنا باختيارنا لموقعه لنعسكر فيه لقضاء الليلة، وذلك لأنني لازلت أحتاج لفحص العمود الوحيد الذي يقع ناحية الغرب على حافة مجرى الدويمة. سأقوم بوضع أرقام تسلسلية فوق كل الأعمدة الحدودية من هذ الموقع وشرقاً إلى الخلف حتى يتوفر لدينا حساب لكل هذه العلامات من الرقم ١١٩ (نيد فضة) والتي من عندها أوقفت فحص الحدود لأقوم بزيارة جازان.

لم يكن الوصول سهلاً إلى العمود الحدودي إلى أقصى الغرب من الشريط وذلك لأن البحر كان قد غمر حديثاً لهذا الجانب من المسطح الملحي، والذي كان مستنقعاً غاصت فيه أرجلنا إلى مستوى الركبة أثناء سيرنا فوقه على الأقدام. لتجنب خطورة التحول، فقد أفادني حسن الطيب، شيخ قبيلة عربي، الذي كان مرشداً لي، أن الحجر الذي يوجد على جانب الطريق كان أول عمود حدودي يتم نصبه. لم أصدقه، وكان لديه من الإحساس بالخجل ما جعله يرافقني عبر المستنقع

الملحي، واعترف بخطئه والشاهد يقف أمـام حواسنا. أخبرني بعد ذلك، بأن هذه العلامة الحدودية تحمـل الاسم الرسمي مقطع الرديف (رقم ٢٣٩) من فرع الخليج الذي تقف عند حافته مجموعة من حجارة كـبيرة مرصوصة مع بعضها في كومة، كانت تقع تجـاه الشمـال من قلعة المرسى فـوق الجزيرة، بينما تقف قـلعتا مـيدي الرئيسيتين في بروز ناحية الشمال الشرقي، وتقع البلدة نفسها قليلاً إلى يمينهما عند النهاية البحرية لسلسلة منخفضة تقف فوقها قرية المنصورية. يبدو أن البلدة تواجه البحـر من فوق صخـرة منخفـضة، وكنا نستطيع رؤية أعـمدة الأشرعـة للسنابك تدخل المرسى في الميناء. ويقع حاجـز البحر الطبيـعي ناحية الشمال الغـربي بينما يجري خط الحدود إلى العمود التالي، بالقرب من مـعسكرنا، قليلاً ناحية الشمال الشرقي. تمكنا الآن من الحصول على منظر أفضل لجزيرة الدويمة، وسلسلة مرتفعة من الرمل تجري من مرسى إلى نقطة المنتصف، بينمـا يمتد بين موقعنا وبين المجرى الذي تمتد فوقه مانجروف كثيف.

سرنا فوق الـطين اللزج والمالح أثناء عودتنا للمعسكـر الذي يبعد فقط مـسافة ١٧٥ ياردة لم يكن لدينا لوجبة العـشاء غير الأرز، وعلى غير عادتي فـقد تعشيت بمفردي تعبيراً عن عدم ارتياحي لحسن الطيب وزميله شيخ العربيين واسمه إبراهيم، اللذين يبدوان وكأنهما يعوقان عـملي بدلاً من دفعه إلى الأمام فوق الحدود إذا كان ذلك العمل يتضمن إجهاداً لهما. توقف جهاز اللاسلكي، ليزداد الأمر تعقيداً، بعد خدمة طويلة ممتـازة امتدت على مدى ثمانيـة أشهر، ولم أكن معتـاداً على التحرك والانتقال دون الاستماع إلى الأخبار، كما افتقدت ملاحظاتي للنجوم. لم يكن هذا الاعتبار الأخير ذا أهميـة الآن، وذلك لأن معظم النقاط المهمة على الساحل قد تم تثبيتـها بصورة مقنعة في خرائط إمارة البـحر، ومن هذه اللحظة وإلى نهاية رحلتي

فلن نكون بعيدين عن البحر. كان أهم حدث قد وقع ظهر اليوم هو الاكتشاف المدهش لقطع من قشور بيض النعام وسط دبال من أصداف البحر، نتجت عن تجارة أسواق أم اللآلئ في مصوع وهي صناعة محلية في هذه الأنحاء. كان أكثر أنواع الصدف شيوعاً هو الكوكيان، ويتم شحنه من الشمال عبر البحر بكامله وبداخله اللحم المتحلل. معرفة كيف وصلت بيوض النعام إلى هذا الموقع يظل سراً، ومن الواضح أن وجودها هنا كان بواسطة الإنسان، ربما من أفريقيا. لا تزال الشاحنة معنا وكذلك السائق الذي يسره أن ينادى باسمه شهرين.

وصلت في الخامس عشر من يناير إلى أقصى المواقع الجنوبية للحدود، وأحسست بأن رحلاتي تقترب من نهايتها. وحينما يتم اتصالي مع النقطة الخارجية البعيدة للحدود من جانب الاتجاه المعاكس، أكون حينها في طريق العودة إلى جازان للمرة الأخيرة، ومنها إلى الوطن تجاه مكة. أشرق الصبح والسماء ملبدة بالسحب ناحية الجنوب والجنوب الشرقي، والغرب، مع نسيم بارد لطيف. كان هنالك ندى أثناء الليل، غير أن منخفض السبخة الذي كان علينا أن نعبره لنصل إلى العمود الحدودي التالي كان مبللاً ومستنقعياً، وقد استفدت من تجربة الأمس فخلعت حذائي ودخلت السبخة وأنا حافٍ يرافقني كل من حسن الطيب وإبراهيم، بينما سافرت بقية المجموعة بالسيارة على الطريق الذي يجري في موازاة الحدود. وصلنا إلى عمود سديد الحدودي (رقم ٢٣٧) عند حافة تل رملي منخفض يجري من ناحية الشمال الغربي مسافة ميل واحد، ويدور على الجانب البعيد من المنخفض – لا يزال هو خور ردف – ومن ثم إلى معسكرنا. كان العمود الحدودي عبارة عن كومة صغيرة من بلكات مرجانية كبيرة يكسوها ملح السبخة. أمكننا رؤية قرية الموسم الآن ناحية الشمال الشرقي، بينما انتشرت سلسلة رملية عالية

تسمى حفيـة ناحية الشرق بعد مسافـة. ربما كان هذا هو «التل الرملي» الذي ظهر في خريطة إمارة البحر. وتقع فيما يلي هذا مجموعة تلال حرض.

يتكون العمود الحدودي التالي واسمه السكين (رقم ٢٣٦) من أربعة أو خمسة بلكات من المرجـان، مـدفونة إلى وسطهـا في الرمل ويصـعب العـثور عليـه بين شجيرات الصحـراء يشار إليه أحياناً باسم المقاطعة «أضراع الحـشية»، وتنتمي إلى منطقـة كانت زراعيـة ذات يوم (دخن) فوق فـرع مهجـور منذ زمن طويل لوادي حرض مـغشوش. أخـبرني رفاقـي من الموسم بأن الجبالين ويعنـون بهم الحكومة اليمنـية، أو بصفـة عامـة رعاياها قد أقـاموا سـداً في الوادي الرئيس إلى أعلى، وكانت النتيجة، أن المجاري في الأرض السعودية نادراً ما تتلقى مياه السيول. كان مواطنو الموسم، في المواسم الجـافة، يهجرون مسـاكنهم وينتشرون بحـثاً عن سبل الحياة في مكان آخر. يفيد نمو كثيف لنبات الغضا والعراد في مجرى حشية بوجود مياه، أو أثر رطوبة تحت التربة، غير أن هذه بطبعها نباتات صحراوية ولا تموت إلاَّ بتعاقب سنوات متتالية من الجفاف. كان عرض هذا الوادي ٥٠٠ ياردة وقد سدّت سلسلة رمال خفية جانبه الأيسر.

اتجهنا الآن ناحية الجنوب الشـرقي في اتجاه حيفة، وقد علمهـا العمود الحدودي الذي يسمى يمني الحيفه (رقم ٢٣٥) في وسط أرض رملية منخفضة تسمى نشر وتنمو فوقهـا الكثير من حشائش الجليل والثـمام على الحافة الجنوبية للسـلسلة الرئيسة على بعد ميل ونصف الميل. تمكنَّا الآن من رؤية أفضل لقلعة المنصورية التابعة لميدي، على بعد ثلاثة أميال فقط ناحية الجنوب. كـانت بناءً حجرياً متطاولاً وعلى زواياه حصون دائرية وبناء بارز مـرتفع يرتـفع عليـه ساري الـعلم في وسط فنائه. يقف العـمـود الحدودي التالي في هذا الخبت الرملي نفسه، ويسمى رديف القراد (رقم ٢٣٤) وآخر

بالاسم نفسه (رقم ٢٣٣) على بعد ٣٠٠ ياردة من الطريق الذي يناسب السيارات ويقود من طريق الساحل إلى داخل البلاد. نما إلى علمي أن لجنة الحدود قد جاءت بأشخاصها واجتمعت في هذا الموقع لتقرر الموقع الصحيح للعمود لأجل أن يكون الطريق داخل الأراضي السعودية تماماً. تم وضع الأعمدة الأخرى، عند ذلك الذي يقع بجوار معسكرنا وحتى هذا الموقع، بواسطة البدو بتوجيه من اللجنة، لربط العمودين الأساسيين دون إثارة مشاكل قضائية حول الطريق الذي يقود في نهاية الأمر إلى قرية صامطة الكبيرة على تعشر، رئاسة قبيلة بني شبيل.

يتجه شريط الحدود حتى هذا الموقع ناحية الجنوب، غير أنه استدار الآن ناحية الشمال الشرقي، وبمتابعة هذا الاتجاه وصلنا سريعاً إلى طريق السيارات وسلكناه مسافة ميل واحد، إلى حيث منخفض واسع كثيف الشجيرات يسمى خبت تفاريد يمتد مسافة شمالاً وجنوباً عبر الطريق، يحتل شريطه العريض المغطى بشجيرات القضب والذي يبلغ عرضه ١٠٠٠ ياردة وسط السهل المنخفض أكثر من منخفض، وبرز كشريط أخضر لطيف ثري ليكسر الملل الذي تجلبه الأرض العشبية المتقطعة على جانبيه. تعد هذه المنطقة منطقة مراع جيدة خاصة بعد الأمطار، غير أنه تبدو من مظهرها أنها لم تصبها الأمطار لفترة زمنية طويلة. وقفت كومة حجارة حدود تفاريد (رقم ٢٣٢) في وسط هذا الشريط الأخضر وعلى مساحة تزيد قليلاً عن ميل واحد من جهة قرى عريبي الشمالية وحتى مشابية في وادي ميدي. توقفنا مدة ليست طويلة تحت ظل شجرة قضب لتناول الشاي وللتدخين ولنعطي الماكينة فرصة لتبرد وهي تحت شريط أخضر آخر مملوء بشجيرات تسمى قزي. وصلنا مباشرة بعد هذا إلى العمود الحدودي الذي يسمى يمنى المجاحف وهي منطقة خبت عارية يكسوها عشب ميت. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم

٣٣١) وأمكننا عنده رؤية خط الأشجار التي تعلّم مجرى الموسم أو مقشم وبه قريتا غويرة (عرابية) ودخيلة (غريبي) على جانبه القريب.

ذهب حسن الطيب على رجليه إلى دخيلة ليعلن عن اقترابنا من بلاد الغريبيين وإعداد المرشدين الضروريين وذلك لأن هذا العمود الحدودي هو آخر الأعمدة داخل أراضي الغريبيين. استقر بي المقام في هذه الأثناء لإغفاءة الظهيرة تحت شجيرة قضب، تلك التي جذبت نحوها ألوف الفراشات بيضاء عروق الأجنحة وقد تدلَّت خادراتها في أعداد ضخمة أيضاً من الأوراق والأغصان. عبرت قافلة صغيرة الموقع أثناء استراحتنا وقد خاطبها بعض رفاقي، ويبدو أنهم كانوا يتساومون بشدة حول سعر شاة لوجبة المساء. مرَّت بنا مجموعات صغيرة من الناس بعضهم على قدميه وبعضهم على ظهور الحمير وبعضهم على ظهور الجمال، وعلى فترات، سالكين على ما يبدو أنه طريق سريع حقيقي يربط بين دخيلة ومشابية. ولا يوجد ما يدعو إلى القول بأنهم لا يلتزمون بالشكليات الحدودية وهم في ترحالهم من وإلى، في مناسبات قانونية. وجدتُ قطعة أخرى من قشر بيض النعام، بالقرب من عمود تفاريد الحدودي، وكنا نشاهد على مدار اليوم، خاصة في المساحات السبخية، آثار حوافر الغزلان مقبلة أو مدبرة من البحر حيث تشرب. يبدو أنها تعجب بالملح والسائل معاً، غير أن شرب مياه البحر هو خاصية ثابتة لغزلان تهامة. لقد شاهدنا قطيعاً صغيراً منها في الخبت بعد بداية مسيرتنا بقليل.

كان هذا عند الساعة الرابعة مساءً، وهو الوقت الذي أدركنا فيه حسن السهل، شيخ القيسيين ومعه شخص آخر مشهور بأنه خبير للجغرافيا المحلية. على رغم من كل هذا، فقد طال بحثنا مدة ربع ساعة، عن العمود الحدودي التالي

الذي يتألف من ثلاثة كتل من الحجارة ملقاة معاً ويصعب تحديد موقعها في قفر تزعق فيه الرياح ويكسوه عشب ميت. كانت بقعة كئيبة بحق ويسمى العمود الحدودي عضير الحب (رقم ٢٣٠). أمكننا رؤية قرية مشابية التابعة لبني زيلة إلى جنوب عضير الحب، وليست بالبعيدة، وهي على حافة شريط طويل من شجيرات تعلّم مجرى وادي ميدي، وهو الفرع الجنوبي لوادي حرض، والذي يمكن أيضاً رؤية رأسه فوق السرج الذي يقع بين تليّن مرتفعين إلاَّ أننا لم نر قلعة القرية. أمكننا أيضاً رؤية قرية القمبور التابعة لقبيلة عزيبي وهي على يمين دخيلة، وكذلك قرية رمضة التابعة لقبيلة قيس، وهي عبارة عن عشش من الأعواد ليست بالبعيدة وإلى شمالنا. يطلق على تلَّي حرض اسما حرض وخوفار بالتوالي ويطلق على السرج اسم أم فج. تعرفت على تلال تحنان وعاصم وأسلة بعيداً إلى الشمال، غير أن مرشديَّ لا علم لهما بأشياء بعيدة كهذه. استطاعا على أي حال التعرف على سلسلة بنر وتلال محمر وجحفان وشقدم التي سنصلها في وقت لاحق. تقع ميدي ناحية الجنوب الغربي وهي واضحة ومعها قلعتان باسم قلعات السيد مرتفعتان في بروز فوق مباني البلدة الأخرى.

كان العمود الحدودي التالي (رقم ٢٢٩) واسمه مثعن سهلاً، وما هو إلا جذع شجرة وضع على الجانب ليعلم الحدود. قررنا أن نقضي الليلة هنا، وفرشت سريري فوق الحدود لأنام في دولتين. خرجنا الآن من الأقفار العشبية إلى داخل سهل واسع من أرض طينية تنتشر فيه الشجيرات وبعض الأشجار ذات الحجم المتوسط، وكانت قطعة من البلاد جذابة ولا ترتفع عن ساحل البحر بأكثر من ١٠٠ قدم. وتتويجاً لارتياحنا العام بخروجنا من الأرض الميتة من ورائنا، فقد أرسل لنا أمير الموسم حملاً هديّة للسلم، بينما أرسل أمير الخوبة، على مسيرة

بعض الأيام ناحية الشمال الشرقي، ممثلاً له؛ ليقابلنا ومعه مرشد ليوجه خطواتنا. وصلتنا إمدادات الماء من القمبور واجتمعنا كلنا في تناسق واضح لنفي لحم الضأن حقه.

لاحظت بعد فترة صوت خفقان في الجو، بينما كان الضجيج الذي جلبه أزيز الحصاد وحشرات أخرى مقدمة ملائمة لهذه البلاد الغريبة الشكل. لقد ارتفعنا خطوة عن طرف الساحل، على الرغم من أننا لا نزال على مسافة من السفوح الجبلية، والتي فيما يليها، على أي حال التقطنا منظراً لعدد من القمم لسلسلة الجبال الرئيسة متضمنة حرم وناضر وارتفاعان بلا اسم متصلان بسرج، وحاجور وحماطة وجريز – كلها على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم أو أكثر فوق سطح البحر، وتمتد على شكل وتر من الشمال الشرقي إلى الشرق وفي الترتيب الذي ورد. تمتعت بمنظر عظيم لهذه البانوراما الرائعة حينما صحوت من نومي حوالي الساعة السابعة صباحاً، وكانت الليلة خالية من الندى، ولم يمض وقت طويل حتى حجب الضباب والسحاب معظم المنظر بقية اليوم، تاركة فقط السفوح الجبلية في مجال الرؤيا وتسمح من حين لآخر بلمحات من الجبال العملاقة من ورائها. كانت الدرجة الدنيا للحرارة أثناء الليل ٦٤ درجة، وسجل مقياس الحرارة الدرجة القصوى عند العصر وهي ٨٤ درجة. كانت الظروف مثالية لمثل هذا السفر.

حضر إلى معسكرنا أثناء الليل رجل شرطة يسمى حامد، كنت قد رفضت خدماته في جازان، حينما كان يقضي إجازته، وفي الموسم حينما سبقنا في طريق العودة إلى عمله في الخوبة، وألحق نفسه مع مجموعتنا شئنا أم أبينا، تركت الأمر عند هذا الحد إعجاباً بمثابرته. بعد أن دعمنا أنفسنا بإفطار جيد بما تبقى من لحم الحمل والأرز من عشاء الأمس، وبدأنا المسيرة بروح عالية للمرحلة التالية من

استكشافاتنا، رفضت السيارة، على أي حال، أن تتحرك بسبب البرد وسرنا ببطء على الأقدام يسبقنا مرشدونا منتشرين بحثاً عن العمود الحدودي التالي. وصلنا إلى العمود خلال خمس عشرة دقيقة، ناحية الشرق من معسكر ليلتنا وفوق الشكل نفسه من البلاد ذات الشجرات الكبيرة وتبعثر طيب لأشجار السرح. كانت العلامة الحدودية تتكون من عدد تسعة حجارة صغيرة في كومة مسطحة، وهي علامة مثعن الثانية، (رقم ٢٢٨) بينما وصلنا العلامة الثالثة (رقم ٢٢٧) وكانت عموداً خشبياً مسطحاً على الأرض يعلّم موقع اللقاء الثلاثي لقبيلة بني زيلة ومغفلي وهما قسمان من قبيلة بني مروان على الجانب اليمني، وقبيلة قيس على الجانب السعودي.

رفعنا العمود مؤقتاً في وضع قائم وزيناه بممثلي قسمي قيس وعريبي المحترمين وذلك لأجل أن أتمكن من التقاط صورة للمنظر. يبدو أن البلاد هنا، وكأنما بدأت تتكسر مرة أخرى بالأمواج المنخفضة للرمال وهي تتعدى تدريجياً السهل الطيني إلى جانب غطاء نباتي من قصب وعشب جاف وشجيرات قصيرة وبعض أشجار السرحة من حين لآخر. تقع قرية عوارض التابعة لبني زيلة على مسافة الميل الواحد، ناحية الجنوب الشرقي.

تنحني الحدود من هذا الموقع بعنف ناحية الشمال وتستمر كذلك لمسافة. وصلنا لما يدل على نشاط زراعي ونحن نقترب من الوادي، حيث كانت هنالك حقول ذات متاريس عالية على جانبي الحدود دون فصل واضح بينهما. تم تصحيح هذا سريعاً بوضع علامة حدود تحتوي على حجرين صغيرين موضوعين على الأرض، إلى خارج حلقة الظل الذي ألقته شجرة سرح كبيرة، وقد استلقيت تحتها، على الرغم من أننا لم نسر مسافة طويلة، لأجل الإغفاءة والراحة. هبت

رياح قوية علينا وقل مجال الرؤيا. اعترض شريط من غابات كثيفة بيننا وبين وادي حفيرة أمامنا، والذي كان يعلّمه شريط أكثر كـثافة من أشجار وشجيرات ويحتوي على بئر جلبت لنا منها المياه.

توقفت الزراعة تماماً بالقرب من خط الحدود، وحـينما وصلتنا الشاحنة أخيراً بعـد الساعـة الثالثـة مسـاءً، كان سـيرنا خـلال طريق تنزهي. يعـرف هذا الموقع الحدودي باسم خزان حج (رقم ٢٢٦) بينما يسـمى التالي له حفيرة (رقم ٢٢٥)، وما هو إلاَّ جذع شجرة ميتة مـغروس غير ثابت في كومة رمل على حافة الوادي. تقع قرية حفيرة على مسـافة ٢٠٠ ياردة إلى يسارنا، وأمكننا الآن رؤية قرية مثعن على مسافة نصف ميل ناحية الجنوب الغربي من موقعنا. وكانت أكثر القرى بروزاً ومنظرانية هي قرية رمضة، تقف على قمة سلسلة رمـلية إلى مسافة خلف حفيرة. كـانت أشـجـار الوادي، الذي يتـواصل مع وادي حـرض ويتـصـلان مع وادي مغشوش، مليئة بالطيور النساجة وأعشاشها المعلقة.

أرسلنا الشـاحنة تبحث عـن طريق أسهل ودخلنا إلى الوادي، وسـرعان مـا وصلنا إلى مجرى السيل الرملي الحقيقي، وكان عرضه حوالي خمسين ياردة وتحفه بكثافة أشجار الطلح والمرخ وغطاء نباتي آخر نموذجي. كوَّن فيما يلي هذا، سهل رملي آخر يكسـوه شجيـرات خفيـضة والكثيـر من المرخ، وهو لا يزال جزءاً من الوادي، والذي حـمل أيضاً مـجرى آخـر يسمى خـريم، وهو بارز جداً ويكسـو أرضيته غطاء نباتي فـاقع الخضرة، معظمه نبات السنا ونبات العلقـا وعدد كبير من أشجـار الطلح. يتكون عمود خـريم الحدودي (رقم ٢٢٤) من دستـة من الحصى الكبيرة ملقاه مع بعـضها على المتراس حول شجرة قصب مـيتة في وسط المجرى. برزنا على الجانب الآخر فوق مـرتفع ضئيل يكوّن عتبة الخبت الواسعـة أو ما يشبه

البراري تكسوها حشائش محتضرة. تسمى هذه الأرض طرف السر والتي فوق مرتفع آخر لها، ويسمى مطيريه، يقف ما يزعم أنه علامة حدودية، حجران صغيران موضوعان على كومة من الأعواد. سيطرنا من هذا العمود (رقم ٢٢٣) على منظر شمولي لأرض مراعي السر التي لابد أن تكون منظراً جميلاً أثناء المواسم المطيرة، غير أنها الآن صورة للكآبة. قوبلنا هنا بوفد من قبيلة بني حمد، ويبدو أنه فرع مستقل من قبيلة بني شبيل في صامطة والذين يزعمون أنهم قد قدموا أصلاً من شهرة في اليمن. لا يدركون عن سلفهم غير أنهم يرفضون أي علاقة لهم مع قبيلة بني مروان والتي يشارك قسمان منها – قيس على أحد جانبي الحدود ومغفلي على الجانب الآخر– معهم نقطة اللقاء الثلاثي عند العمود الحدودي التالي الذي يقع أمامنا، ويسمى دنقر (رقم ٢٢٢). هبطنا قليلاً من سلسلة مطيرية لنصل إلى هذا الموقع، إلى سهل أكثر استواء من الطين والتربة الخفيفة، وقد غطاه الكثير من شجيرات القضب والسرح مع عدد قليل من هذه، وقد بلغ حجمه حجم الأشجار الصغيرة. يسمى هذا السهل، أو قل منخفضاً فيه، مجحف إلاَّ أنه جزء من أرض السر.

لم يصلنا شيخ قبيلة بني حمد، واسمه طاهر، حتى الساعة التاسعة مساءً غير أنه أقبل ومعه هدايا وقد رحبنا بها، كانت عبارة عن شاتين والكثير من الماء وأغراض أخرى. استأذن مباشرة بعد تناول العشاء معنا ليذهب لينام في منزله تحاشياً لبرودة الليل في هذا المكان المكشوف، غير أنه وعد بالحضور في الصباح. كانت قرية المجنة (أو الجنة) على بعد ثلاثة أميال فوق رافد أبام صول لوادي تعشر، بينما يحتل جناحه القبلي المواقع العليا (في تهامة بالطبع) للوادي وروافده في مقابل التضاد مع قبيلة بني شبيل الذين يقعون ناحية الشمال في المرتفعات

الوسطى للمجرى نفسه ويمتدون إلى وادي لية إلى الشمال. كان عمود دنقر الحدودي مضحكاً للدرجة التي لم أستطع مقاومة الإغراء بالتقاطه ووضعه في جيبي وأن آخذه معي تذكاراً. كان العمود يشتمل على ثلاثة أحجار صغيرة جداً موضوعة فوق تكوين تحتي كثيف الشجرات لشجرة سرحة، وأُحسن أمر سرقتي هذه باستبدال الحجارة بعلبة أناناس فارغة مستوردة من اليابان. كانت هذه المعلبات تباع وتشترى هنا بأسعار مخفضة لدرجة مدهشة في سوق جازان، وأشهد بأن المحتويات كانت ممتازة.

كانت درجة الحرارة أثناء الليل كمثيلتها في المثعن ولم يكن هنالك ندى. أفسد الضباب والغمام المنظر الصباحي غير أنني استطعت أن أضيف عدداً من القرى الجديدة إلى قائمتي، وكلها كانت تقع شيئاً ما إلى الشمال من موقعنا، وهي الشمهانية وانتوتة (نتوتة) والجزعة والطوال. كان آل بني حُمَّد عصبيين فما يخص معلوماتهم الجغرافية. وقد أرسلوا كشافيهم في وقت مبكر من الصباح لجمع كل الأعمدة الحدودية التي كان علينا أن نقوم بزيارتها اليوم التالي. لا يهتم هؤلاء الناس بمثل هذه الأشياء ولا يستطيعون أن يفهموا لماذا يهتم بها الآخرون.

تتجه الحدود من دنقر مرة أخرى ناحية الشرق، مع قليل من الانحراف للشمال، ثم يعبر منخفض مجحف الضحل عند طرفه الجنوبي، الذي عنده نستطيع رؤية الأشجار التي تعلم منخفض السر الحقيقي إلى شماله والذي تأخذ كل أرض المراعي هذه اسمها منه. تتجمع المياه في كل هذه المنخفضات بعد الأمطار وتظل فيها حتى يتم امتصاصها غير أنها ليست خطوط صرف بأي شكل من الأشكال. استغنيت عن خدمات شيخي عريبي وقيسي دون أي مكرمة لهما لأنهما لم يقدما لي شيئاً، وذهبنا نحن ومعنا مرشدانا الجدد من المعسكر ووصلنا

خلال عشر دقائق إلى عمود مفجر الضمر الحدودي (رقم ٢٢١) وكان عبارة عن حجرين كبيرين وحجرين صغيرين وهذه الأحجار ملقاة فوق كتلة عشب جاف. ووصلنا بعد عشر دقائق أيضاً إلى علامة قوبة الحدودية (رقم ٢٢٠) وقد اكتسبت اسمها هذا من المنخفض ذي الشجرات الكثيفة الذي يجري من ناحية الجنوب الشرقي لمسافة ٥٠٠ ياردة داخل أرض مغفلي (اليمن) ليتصل مع منخفض آخر أطول (أيضاً يسمى قوبة) يقطع الحدود على زاوية قائمة عند العمود الحدودي التالي واسمه المراود (رقم ٢١٩). يتكون هذا من عدد سبعة أحجار متوسطة الحجم على شكل كومة مسطحة، تعلم الخط الذي تعبر فيه الحدود القاع، والذي يقع ثلثاه (حوالي الميل الواحد) في الجانب اليمني، وجدنا فيه جرادتان منعزلتان. كانت الشاحنة لا تزال معنا وهي تجاهد في ثقل فوق كتل الحشائش غير المريحة في الخبت وقد استفدنا من حين لآخر للإسراع بتقدمنا، برغم أن السير على الأقدام كان أفضل.

برز انحدار لطيف عند المرتفع الخفيف فيما يلي المنخفض وارتفاعه ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر فوق سهل واسع بجوار السفوح الجبلية. وصلنا فيه بالتوالي إلى الأعمدة الحدودية. هم أبو الخطاب (رقم ٢١٨)، وخزوة عسلة (رقم ٢١٧) وتقع هذه على الحافة البعيدة لحوض ضحل جداً يعترضه خطًّا صرف رمليان يجريان شمالاً وجنوباً. يخترق الطريق من حرض إلى تعشر (صامطة) الحدود قريباً من هذه العلامة الحدودية، والتي بالكاد ترى وذلك لأنها تتكون من عدد ستة أحجار صغيرة بجوار جذع شجرة ميت وساقط. أعطت لجنة الحدود هذه الأراضي الموحشة بعداً واسعاً وتركت الأمر للقرويين المحليين والبدو لتعليمها بأي أسلوب يرغبون فيه حسب تقاليدهم. كنا لا نزال فوق الشريط الذي يفصل بني حمد عن

مغـفلي، غير أننا أرسلنا رسلاً لتـحذير التنابكة (بني مروان) وعناصـر الأشراف، الذين يتقـاسمون معـهم القسم التالي من الأرض الـسعودية على امتـداد الحدود. جلبت لنا المياه، في هذه الأثناء، من قرية مـجاورة في جرار فخارية ضخـمة تشبه القرع تحملها الجمال. يبدو أنه لا توجـد قرى على الجانب اليمني للحدود، لم يثر ظهور سـيـارة (موتور) غيـر المتوقع أي صدى اهتـمام به أو فضـول على الجانب الآخر.

وصلنا سريعاً إلى مجرى حسيـة المليء بأشجار المرخ وعبرناه، وهو أول رافد لنظام تعشر يواجـهنا. ينحدر بالقرب من وادي حرض، على اتجاه ناحـية الشمال أكثـر لنتوء التلال حـول قرية حرض. ويقف قليـلاً إلى الخلف منها حجـر مربع جيد، ارتفاعه قدم، يمثل العـمود الحدودي (رقم ٢١٦) الذي يطلق عليه اسم كدف أم خوبة. لقد تم حمـله بالفعل كل الطريق من بئر في مجرى تعشـر ليعلم موقع اللقاء لثلاثة أقسـام قبلية هي: بنو حمد إلى الشمال ومـغفلي وبنو حدَّاد (التابعين لبني مـروان) على الجانب اليـمني. اشتق الاسم من منخـفض على مسـافة ٥٠٠ ياردة ناحية الشمال الغربي، والذي يحتوي على أيكة مرخ وشجيرات أخرى تتضاد بغرابة مع السهل الكئيب ذي الحشائش الجافة.

كان العمود الحدودي التالي مدهشاً أكثر من الذي سبقه، كان عبارة عن حجر رملي كبـير مـستدير، أشـبه مـا يكون بالقنبلة، وبجواره قطعـة صغـيرة من المادة نفسها، لا بد أن تكون هذه قد تم جلبهـا من موقع ترسب قريب للحجر الرملي، والذي تبـرز بعض أجزاء منه من حين لآخـر فوق المـنطقة التي في مـعظمهـا من تركيب بركاني. كان هـذا أيضاً موقع لقاء ثلاثي حيث تتصل قـبيلة الجعادرة -ربما كانوا أيضـاً بني مروان- مع بني حـداد على الجانب اليـمني لمواجهة بـني حمـد.

يقف عمـود حرشة الحسـية (رقم ٢١٥) فوق سـهل لطيف ذي شجيـرات ويحمل جزء كبير منه محصولاً جيداً للذرة (الدخن الكبير) وينتمي إلى قرية الخوجرة (بني حمد) التي تقع على مسافة إلى البعيد ناحية الشمال.

واصلنا سيرنا فوق السهل نبحث عن العمـود الحدودي التالي، وتوقفنا مؤقتاً عند عدد تسعـة حجارة مبعثرة يصـعب وصفها ولقد انتابني الخـجل، حينما تردد مرشدي للتعرف عليـها هدفاً لبحثنا، ولذلك تحركوا يبحـثون عن مرشح آخر لهذا الشرف، بينمـا جلست أستغرب إلى مـتى ستستـمر هذه اللعبة. كـأن الأمر كمن يبحث عن المسامـير في حقل تبن، تمكنوا من العثـور على الهدف على بعد ٣٠٠ ياردة على جـانب الطريق الرئيسي الذي يقـود من حرض عـبر صـامطة إلى (أبو عريش وصبـيا) كان بلا شك طريقاً سريعاً من أيـام الإدريسي. يطلق على العمود الحدودي هذا الاسم نفسـه الذي أطلق على العمود السابق، وهو حرشـة الحوسية (رقم ٢١٤) وكان يتألف من مجموعة حجارة مـبعثرة فوق كتلة حشائش نبت من بينها نبات الترف. لابد وأن تكون الأمطار قد هطلت هنا وذلك لأن حشيشة الثمام انتجت أفرعاً خضراء جديدة بينما تناثرت أعواد من الصبار الصحراوي والتي تبدو وكأنها ميتة أكثر منها حية.

وصلنا الآن إلى نهاية أرض بني حـمد وجلسنا بصبر ننتظر قـدوم ممثلي قبيلة تنابكة الذين تأخروا حتى الآن. بدأت عـاصفة رملية متوسطة تهب تدفـعها الرياح الجنوبية الغربية لترفع من حماسنا، غير أننا لم ننتظر طويلاً، إلاَّ أن الشخص الذي وصل أولاً لم يكن شيخ القبيلة. كان زائرنا هو الشريـف محمد بن حمد الخلاص رئيس أشـراف الوعـلان، وهي قـرية في أعلى تعـشر تـقارن من حـيث الحـجم والأهمية مع صـامطة. كان مظهره رائعاً في ملابس عظيـمة ورحب بنا إلى أرضه

بكل سخاء. لم يعد هؤلاء البقايا من النبلاء القدماء يستمتعون بالثراء والمكانة التي كانت لـديهم في الماضي، وأصبـحوا في مـعظم الأحوال فـقراء سـادة ومزارعين يلتصقون بشراسة فوق أرضهم غيـر المضيافة. كانت أخلاقهم غاية في الحسن ونبل تربيتهم يشع مع كل حركة.

كانت البلاد أمـامنا كثيفـة الأشجار بصورة أفضل مما قـد رأينا منذ أن غادرنا الساحل، وقد مهـدت لنا التربة الطينية قيادة سهلة للشاحنة بتـتابع من فرجات بين مجموعات من أشجار الطلح (مـعظمها سمر) وقطف وبشام متناثر (بلسم) والذي يستخلص منه صمغ ذو رائحة حلوة معروف لدينا باسم بلسم مكة أو بلسم جليد. لا يزال البشـام واسع الانتشـار في مكة وغيرها من مـدن الحجـاز كبخـور ولبان يمضغ. وصلنا بعد خمس عـشرة دقيقة من هذا التقدم الممـتع، إلى منطقة صخرية مكسرة بالعـديد من المجاري الصغيـرة، ولما صعب على الشاحنة مواصلـة السير، قررنا أن نعـسكر في هذا الموقع لقـضاء الليلة ونعـيد ترتيب أسلوب مـواصلاتنا. ستـعود الشاحنة إلى جـازان وستقابلنا مـرة أخرى عند نهاية فـحص الحدود الذي سيتم بكامله سيراً على الأقدام.

وصل إلى المعسكر قبل غروب الشمس شيخ قبـيلة تنابكة واسمه حسن الفقيه، وقد وجهه صوت شاحنتنا من قرية مجرب في منطقة تعشر العليا خلف سلسلة سلال المنخفضة. كان رجلاً نحيلاً، متنسك المظهر، ثري اللبس ويبدو أنه يعرف الكثير عن البلاد أكثر من أي شخص آخر قابلناه من قـبل. تمكنت عن طريقه من تخفيض نسبة تضارب أسماء المعالم الرئيسة للمنظر الطبيعي الريفي. والتي كنت أسجلها بصبر على مسؤوليـة مختلف المخبريـن الذين ربما كانوا سعداء أن يقولوا لي مـع السلامة بنفس الدرجة التي كنت أرغب أن أراهم يغادروننا. خذلني الشريف العظيم بذهابه لينام في

منزله بعد تناول وجبة العشاء، غير أنه عاد في الصباح قبل الساعة الثامنة. واكتفيت ببعض الملاحظات الساخرة حول الكرم العربي. ظل حسن معنا، على أي حال، وقد استمتعت بحديثه وبرفقته.

يخدم هذا القسم من سهل تهامة، مثله مثل بقية بلاد عسير بالأسواق الأسبوعية في مواقع مختلفة وفي أيام مختلفة. تتمتع الخوبة، وهي مركز إداري للمنطقة، والتي كنت قد زرتها في وقت لاحق، بالفخر بموقعها وبسوق الخميس. تأتي في المقام الثاني حرض، في اليمن، بسوق الثلاثاء، بينما يكون سوق الأربعاء وسوق السبت بالتوالي في كل من جمة تقع خلف تل خطوة على الجانب اليمني، وحيران، أيضاً في اليمن، ويكون سوق الأحد في المرتفعات الوسطى لوادي خُلَب أسفل الخوية وهو يكمل الحلقة التي تمد السكان في هذه الأرض بسوق في كل يوم من أيام الأسبوع. أمكننا رؤية وعلان على مسافة ثلاثة أميال ناحية الشمال، غير أننا لم نر مجروب بينما كانت هنالك قرى أخرى داخل مجال الرؤيا هي مكمبال (أو أم كمبال) وسكانها خليط مع بني مروان، وخلفة -قرية صغيرة مخلوطة- ومصنق وهي قرية صغيرة سكانها متنوعون على الجانب القريب من المجنة.

كانت دنيا الطيور مثيرة للاهتمام في هذه البلاد الكثيرة الغابات، مقابل كآبة السهل الصحراوي. كانت طيور الشادي الأورفيي متوافرة إلى جانب صنفين من الصرد والجشنة والقنابر النورفوكية. رأيت الزقزاق الاجتماعي أثناء النهار حول مجرى حوصية. كما كان طائر العجلة الحزين (أو أبو معاول) أكثر الطيور المقيمة في هذه المنطقة، كما استمعت لصوت طائر الوقواق التهامي إلاَّ أنني لم أره إلى جانب طائر آخر كان نداؤه «كو - كو- كو» وربما كان صائد ذباب الجنة. برزت عقرب من الصباح تحت فراشي ولم يمض وقت طويل إلاَّ ونسمع ونرى أسراباً

ضخـمة من طيور القطاة تهـبط عند البرك في وادي أبام سول أمـامنا. طار أمامنا سرب من واحد وعشرين من طيور اللقلـق برشاقة ونحن نقترب من هذا المجرى، واختفت إلى البعـيد. كانت المسايل الصغيرة التي عـسكرنا بجوارها مغذيات لأول جدول من بين ثلاثة جداول لصرف أبام سول، والتي تتـحد فيما بعد لتكوِّن وادي الملح وهو رافد لوادي تعشر. يرتفع أبام سول نفـسه إلى ارتفاع مرتفعات الخطوة، وهو معلم تَلِّي لمجـموعة حـرض. كانت هنالك العديد من البـرك المائية في بطنه الصخـري المغطى بالرمل إلى أعلى وإلى أسـفل منطقة عـبورنا، ويعـد هذا الموقع مكان شرب مستديم ويطلق عليه اسم الملح. توجد مجموعة أخرى من البرك على مسافة ٢٠٠ ياردة إلى أسفل تسمى مسبح الكلبة بينما يقع على مساحة نصف ميل مع اتجاه أسفل الوادي المشرب الرئيس ويسمى محفور.

تقف مجموعـة صغيرة من الحجارة على جانـب الفرع الثاني من أبام سول، تدل على العـلامة الحدودية التـي تسمى أبام سول (رقـم ٢١٣). هذا المجرى أقل وضوحـاً من الأول، وما هو إلاَّ انطواء في الأرض الصـخرية التي يكسـوها غطاء نباتي غني بينه نبات الرنفة أصفر الأزهار والطلح العادية والقطف وأشجار العلب. توجد بالقرب من هذا المجـرى عشش قليلة مبنية من الأعواد لرعاة من قـبيلة قيس تحت ظلال أشجار ضـبر كثيـرة. بدت هذه البلاد الصخرية المتدحـرجة المكونه من البازلت والجرانيت والكوارتز وكأنها نهر جليدي يصب منحدراً من الأودية المختلفة الساقطة من التـلال. يجري وادي حرض -كـما قيل لـي- كنهر منساب يخـتفي ليظهر فوق الـسهل، غير أنه لا توجد مـياه جارية في حوسـية ولا في أبام سول. كانت هنالك عـلامات لزراعة سـابقة في المنطقـة الأخيرة (أبام سـول) تعزى إلى

مزارعين من قبيلة قيس، وهي -بدون شك- ليست حديثة. يتبع شريط الحدود المجرى الأعلى لأبام سول الثاني إلى كومة دقيقة من حجارة صغيرة على الجانب الأيمن في وسط حقول ذات متاريس ويسمى أبو مشنى (رقم ٢١٢). تنتمي هذه أيضاً إلى مزارعي قبيلة قيس وقد رأينا بعضا منهم في الجوار، يرتدون خرقة قماش حول خصورهم وقبعة عريضة من القش تحميهم من الشمس. وصل رجل على ظهر حمار أثناء وجودنا في هذا المكان ومعه جرة ماء ضخمة، واجتمع رفاقي، ما عدا الشريف الذي لم يكن ظمئاً، حول الجرة يشربون دون أن يدعونني لأشاركهم وحينما علقت على هذا التصرف مع الشريف، أجابني بلهجة مرحة: «نحن بدو كما تعلم». أرسلوا على أي حال أحد الرجال على الفور ليحضر لي بعض الماء، وكافأته على ذلك بريال، على الرغم من أنني لم أكن أرغب في الشرب أصلاً.

وصلنا إلى موقع يرتفع فيه الطريق في حدة إلى أرض منخفضة عارية، ونحن لا نزال فوق المجرى الكثيف الأشجار، وقد تجرحت بجداول ضحلة صرفية تتلاقى في أبام سول. تسمى هذه الأرض السفلى دُندُف وتحمل ما لا يقل عن أربعة أعمدة حدودية على الشريط الذي يتجه شرقاً إلى سفح التلال الحقيقية، التي تنحدر فجأة إلى العمود الرابع في طبقة بارزة تميل من جهة الشرق إلى الغرب على زاوية ٤٥ درجة.

كان ارتفاعنا عند العمود الحدودي الأول (رقم ٢١١) حوالي ٣٥٠ قدماً وتمكنا من رؤية قرية حسم اليمنية إلى الجنوب والتي يتكون سكانها من جزأين أحدهما من حرض والآخر من قيس من الجانب السعودي. كان العمود الحدودي الثاني (رقم ٢١٠) على ارتفاع ٥٠ قدماً، في خلفية أشجار ضبر يتخللها شجر السلم

والسمر على مسافة ١٠٠ ياردة إلى الشرق من الممر الذي يقبل من ناحية حرض عبر حسم ويمر بطريق المجروب إلى الخوبة. كانت أشجار البشام في وفرة وتمد السكان المحليين بالمسواك. بدا لي الناس هنا وهم بائسون العديد منهم يكاد يكون أعمى بأمراض عيون مختلفة، وكلهم مريض، وكلهم آسف، ولهم اعتراض متأصل لأي ضرب من الإجهاد الجسدي أو الإرهاق. كانت دهشتهم مسلية حينما أخرجت الترمس وقدمت لهم أكواباً من الشاي الساخن. كانت العلامة الحدودية الثالثة (رقم ٢٠٩) على ارتفاع ١٠٠ قدم أعلى من السابقة، وكانت عبارة عن كومة من حجارة تم جمعها من السهل وبالكاد يمكن التعرف عليها بأنها من صنع الإنسان. أمكننا من هذا الموقع المرتفع نسبياً، أن ننظر إلى الخلف إلى سلسلة أديات الدغسة المجاورة لمنخفض الجوبة غير أن العلامة الرابعة لدندف (رقم ٢٠٨) كان أعلى أكثر، حوالي ٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر. كانت تقريباً عند أسفل التلال، وذات حدود واضحة مع السهل، وتجري بالفعل شمالاً وجنوباً في هذا القطاع لمسافة ٥٠ ميلاً.

كان العمود التالي واسمه دويحي (رقم ٢٠٧) على الارتفاع نفسه كما كان سابقه إلاَّ أنه يقف على العرن الفعلي لسلسلة بنر التي منها كان هنالك هبوط خفيف إلى العلامة الحدودية التالية واسمها مبين (رقم ٢٠٦) التي تقف على الشاطئ الأيسر لوادي تعشر على ارتفاع ٤٠٠ قدمٍ فوق سطح البحر. قامت لجنة الحدود بزيارة الموقعين وأقرت موقع العمود، وكان سليمان الحمد، حفيد وزير المالية، أحد أعضائها وقد خدم المملكة العربية السعودية، بينما كان ممثل اليمن يسمى عبدالمطلب. لم يكن الخط المستقيم الموصل بين العمودين هو الحدود، والتي -حسب ما تم الاتفاق على ذلك - تعد ممتدة من دويحي حتى امتداد سنام سلسلة هجرة النمر وهي الامتداد

الشمالي لبنر، ثم إلى أسفل إلى الجانب الأيسر لوادي تعشر في ميين. عاد عضوا اللجنة، بعد أن أشرفا على حل هذه المعضلة دون أن يحسا بإرهاق التسلق لارتفاع ٨٠٠ قدم فوق الانحدار الشديد، إلى ضيافة وكرم الشريف في وعلان، وفي الصباح عن طريق المجروب، قاما بزيارة ميين. طفنا حول السلسلة بعد رصد موقع المجروب، الذي بدأ ظاهراً للعيان لأول مرة على الجانب الأيمن لتعشر الذي يفصل أرض الأشراف عن أرض التنابكة. يقع على يساره في نفس المنطقة العامة، قرية إبل ضبرة وبها سكان قليلون من قبيلة قيس، والتي كانت تخضع لليمن قبل تثبيت الحدود، غير أنها الآن حولت ولاءها.

أشرت إلى الشريف، قبل مغادرتنا دويحي بأن الوقت قد دخل لصلاة الظهر، وأفادني أنه ليس من الشرع أن يؤدي المرء الصلاة دون وضوء إذا كان الماء متوافراً. كنت أعتقد أن رغبته الحقيقية هي الوصول إلى حماية وكرم قرية ميين بأسرع فرصة، وذلك لأن أقرب موقع للماء (وهو وادي تعشر) يقع على بعد ساعة ونصف الساعة إلى الأمام من موقعنا. استغربت أن أجد إجابته غير مستساغة لدى بقية المجموعة، بما في ذلك حسن الفقيه، وذلك لأنهم اصطفوا جميعاً للتيمم بالرمل وأداء الصلاة قبل مغادرة الموقع. لم يشترك معنا الشريف في هذا.

تنشق سلسلة هجرة النمر إلى نصف طولها بممر جميل يسمى غوية والذي يدخله رافد مسيل لتعشر. كانت الزاوية المحصورة بينهما أرضاً زراعية كثيفة من أسفل السلسلة إلى أعلى السلسلتين الخارجتين وهما منود وسلال واللتان تبدوان على بعد وكأنهما من حجر رملي. تحمل معظم الحقول ذات المتاريس بقايا حصاد المحصول السابق، إلاَّ أنه توجد مساحات للدخن الأخضر حول قرية غوية الصغيرة. هبت رياح جنوبية متوسطة القوة عند الظهيرة وقد حجب الضباب

العلامات الأرضية البعيدة أثناء ما كنا نقترب من معسكرنا في ميين. كانت هذه القرية على الجانب الأيمن للوادي بالقرب من قرية أصغر تحمل الاسم نفسه والتي تقع على الجانب السعودي قريباً من خط الحدود الذي يخترق المعسكر.

أمضيت ساعة جميلة بجوار عمود ميين الحدودي وذلك قبل أن نعبر الوادي، وقبل الغروب كنت خلالها أقوم بتسجيل ملاحظاتي حول المحيط المجاور. كانت العلامة الحدودية مخيبة للآمال، كالعادة، إلاَّ أنها وقفت بجوار عينة ممتازة لشجرة العدن وردية الأزهار، التي يضيق ساقها عند قاعدته الدرنية إلى رأس رفيع يرتفع إلى ١٠ أو ١٢ قدماً، يتم نقش الساق لاستخراج صمغها العطري. تنحدر صخرة شبه شستية رهيبة عارية إلى أسفل وبلا مقدمات من نهاية هجرة النمر إلى موقع يدخل فيه الوادي إلى سهل تهامة.

يأتي هذا الوادي في اتساع من ناحية الشمال الشرقي وفي هذا الاتجاه يكون المجرى مرئياً مسافة ميل واحد.

كان الوادي محاطاً من الجانبين بصخور عالية وتكوِّن تلك التي تقع على الجانب الأيمن جزءاً من التل الشديد الانحدار الذي يسمى مربح ميين، والتي إلى جانب ربوة مماثلة تسمى مربح الأشام (إلى الشمال) وعلى بعد ٥٠٠ ياردة إلى الشمال منها، وهو موقع معترف به كمكان تعسكر فيه القرود. لقد رأيناها هذا اليوم، في أعداد لا بأس بها، وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الساحل، إنها تقضي الليالي في هذه التلال في تجمعات كبيرة، وتقضي النهار ترعى أوراق الغابات في المواقع الخلفية المنعزلة إلى ما وراء الطرف الخارجي للسفوح الجبلية، أو أحياناً، بين محاصيل القرية.

ينحدر الوادي، خارج مجال رؤيتنا المحدودة إلى أعلى، بين تلي جحير (الجانب الأيمن) ومبعوثة. يوجد جدول جارٍ أو غيل فوق ذلك الموقع، -كما جاء في الروايات المحلية- وعلى امتداد المجرى الذي نراه على جانب الحدود، وهو ينساب بين جانبين تكسوهما الشجيرات ويقال إن انسياب الماء مستديم، على أي حال، حتى وعلان على جانبه الأيسر وقليلاً بعد ذلك إلى ما يليها. قدرت عرض هذا الجدول من موقعي على الحدود، ويجري الجدول الآن أسفل الجانب الأيمن فوق مجرى حصوي. مسافة ١٠٠ ياردة وعمق ستة أقدام في بطن الوادي الرئيس. وتوجد أعلى هذا الموقع في انبعاج كبير للجانب الأيسر حيث يدور المجرى في المنحنى، بركتان بارزتان يطلق عليهما اسم حجلة ميين ومنهما اشتق اسم العمود الحدودي واسم القرية الصغيرة. لقد أضافتا جاذبية للمنظر كما يرى من هذا الموقع بحلقات مياههما العميقة ذات اللون الأزرق التي يبلغ عمقها ٢٠ قدماً. استمتعت عند الغروب بحمام ممتع في إحدى البركتين وقد وجدت الماء دافئاً بسبب أشعة شمس النهار.

تنحدر الصخور هنا على زاوية ٤٥ درجة فوق طبقات محطمة وملتوية، بينما تكسر جزء كبير من الصخور التي تربط بين جبلي القرود وجرفت السيول جزءاً منهما. كانت تنتشر كِسَرٌ من الصخور في المجرى، بينما توجد على جانبيه، وفوق المنحنى، أكوام كبيرة من صخور وحصى ربما كانت بقايا سد قديم في الأيام السعيدة الخوالي حينما كان عرب هذه المناطق الجبلية مهندسي مياه عظام، وقد وظفوا مهارتهم لري مساحات واسعة من الأرض التي هي الآن مهجورة وقد غطتها الرمال. لقد ذكرت سابقاً أن وادي حرض مجرى جارٍ داخل حواجزه

الجبلية، غير أنه جاف جداً، عدا أيام السيول، على امتداد مجراه عبر السهل. ينطبق الأمر نفسه على تعشر، وهو أقصى الأودية السعودية ناحية الجنوب. تصل مياهه إلى البحر فقط في أزمان يكون فيها السيل عظيماً، ويفيض في مثل هذه الحالة الوادي فوق مساحات معتبرة من السهل ويخصبها كلها، والتي يزرع القرويون عليها الدخن ومساحات من القطن. تنتج الأجزاء العليا والوسطى محاصيل جيدة حتى في السنوات ذات السيل العادي، علماً بأن كل الماء يتم استغلاله في قضاء حوائجهم وبالتعامل غير الماهر أيضاً، وذلك قبل أن تصل إلى القطاع الساحلي الذي تبرز مياهه تحت السطحية في مواجهة البحر لتكون المسطحات الملحية التي ورد ذكرها. لن يكون الأمر صعباً بالتأكيد عدا تمويله، لإعادة تشغيل السدود القديمة التي حافظت ووزعت الماء على أسس علمية للصالح العام الذي يعود على البلاد التي تقع إلى أسفل.

ينطبق هذا على العديد من الأودية التي سنزورها في وقت لاحق، وكذلك ينطبق الأمر على مجارٍ مثل وادي جازان، ووادي ضمد، ووادي بيش وربما أودية أخرى، أعتقد أن مساحة قابلة للزراعة وبها خصوبة كامنة، وفي حجم الدلتا المصرية تنتظر رؤوس الأموال العربية ومهندسي الري في المستقبل. ربما تكون ثروة النفط في شرق الجزيرة العربية هي الوسيلة لإمداد الساحل الغربي بالمياه التي تذهب هباءً بسبب عدم الاستفادة منها حينما تأتي بها السيول. لقد أزعجتني، -بصفة عامة-، حالة الفقر التي يعاني منها الناس في هذه الأجزاء، ويحدوني الأمل بالإمكانيات العظيمة التي ستضع حداً لذلك.

رأيت زوجاً من طيور (أبو مطرقة) أثناء تجوالي في المجرى، وكانت تعشعش هناك، حيث كان أحد الزوجين جالساً فوق العشة الضخمة، وهي مبنية في مكان

بارز على الشجـرة. كما كانت تحلق طيـور سنبيرد وادي النيل في أزياء زفـاف رائعة بينما هبط سرب من حمام الصخور إلى الماء قبل حلول الظلام. رأيت وسمعت طائر العجلة، غير أن هذا أصبح الآن شائعاً، ولم ينـقص إعجابي به منقاره الكبير المقوّس الذي يقف عند نهاية جسم دقيق نسبياً، ولم ينقص إعجابي بطيرانه الصامت وتشكيه المتوجع. كانت البلابل وطيور البلاكستارت متوافرة أيضاً في الوادي الكثيف الأشجار بجوار الأثل والأراك والسمـر ذات الأزهار البيضاء. كمـا رأيت زوجاً من البط فوق الماء واستمـعت إلى أصوات العديد من الدجاج الحـبشي في السفوح الجـبلية. كنت استـحم في الصباح الباكـر في واحدة من البرك حـينما فوجئت بصـوت كأنه أمطار غزيرة. نظرت إلى أعلى لأكـتشف أنه كان يصـدر من وقع أقدام مئـات الماعز وهي تمشي فوق الحصى لتصل إلى موقع الشرب.

كانت درجة الحرارة في الليل كمـا في الليلة السابقة (أدناها كان ٦٤ درجة)، وكان الجو صافـياً في الصباح مما سمح بإلقاء نظرة على الجبـال العالية. وأيضاً مما يدهش له، رؤية براكين قمتين بالقرب من (أبو عـريش) حوالي ٢٠ ميلاً من هنا. وقف بناء حـسن الفقـيه بارزاً بين منازل مـجروب عـلى بعد يقل قليـلاً عن الميل الواحد. ويعتقد أن بني زين وبني عواجي التابعين لقريتنا، والسرداح الرباح، التي تقع أمامنا وقرى أخرى صغيرة بجوار الحدود، ما هي إلاَّ أقسام لقبيلة تنابكة. تمتد الحدود أمامنا ناحية الشمال وتطوف بالسفوح الجبلية، إلاَّ أننا نستطيع رؤية قمم كل من النقرة وجحـفان (داخل الأرض سعودية) وبينهـما تجري الحدود ناحـية الشرق فوق مجرى مـغايلة. كان كل ما أمكننا رؤيته من الجانب الأيـسر لوادي تعشر، بما في ذلك غوية ووعلان تنتمي إلى الأشراف. بدأنا السيـر على الأقدام فوق مساحة صغيرة من الجذامة تنتمي إلى قريتنا، وسرعان ما وصلنا إلى العلامة الحدودية على

الطرف الغربي لتل القرود الشمالي واسمه مرباح الأشام (رقم ٢٠٥). كان عبارة عن كومة كبيرة وكسارة لصخور ملقاة بإهمال وبالكاد يمكن تميزها بأنها من عمل الإنسان.

أخذ الزمام على الجانب اليمني قبيلة بني بوسيل من قبيلة بني حدَّاد، بينما ظل التنابكة في موقعهم غرب الشريط، والذي فوقه وبعد مسيرة ٢٠ دقيقة أو أقل وصلنا إلى بلكات كبيرة من الصخر موضوعة حول تجويف داخلي عند طرف ممر ضيق حجري بين السفوح الصخرية المنخفضة. أخذ هذا الممر اسمه من السلسلة – ضلع المربح أو باختصار ضلع (رقم ٢٠٤). قُدِّم إليَّ حمار قزم في هذا الموقع ليأخذني فوق طريق على أرض ميتة، منخفضة، صخرية ينمو فوقها نبات خفيف شحيح وشجيرات القطن عديمة الورق. امتدت حقول الجذامة التابعة للمجروب إلى حافة الصخور ولا يبدو عليها أنها مزدهرة. وصلنا على فترات قصيرة إلى علامتين حدوديتين باسم ضلع (رقم ٢٠٣ ورقم ٢٠٢) وتوقفنا قليلاً عند كل منهما نستمتع بالمنظر. رأيت حسناً وهو يتقدم في تلصص ليضيف حجارة قليلة من القفار المجاور ليجعل الحجارة الثلاثة لعموده الحدودي تبدو بشكل أفضل، أما غير ذلك، فإن النقطة المهمة هنا هي قرية حجاج الصغيرة على بعد ميلين وهي ذات بناء جميل يسود على عشش الوتل وعشش الأعواد.

واصلنا سيرنا فوق البلاد الكئيبة على امتداد قاعدة موجة الصخر الغاطسة ووصلنا إلى عمود ضلع رابع (رقم ٢٠١) ووصلنا فيما يليه إلى عمود حدودي له خلفيات تاريخية. كان اسمه مقتلة ناصر (رقم ٢٠٠) وواضح أنه كومة حجارة قبلية قديمة تم تضمينه داخل الحدود الرسمية ويقف تذكاراً للأيام الخالية لمقتل رجل يسمى ناصر من قبيلة بني حمد، وقد قتله رجال قبيلة بني مروان.

يسمى هذا العمود وكذلك العمود التالي بالاسم نفسه (رقم ١٩٩) ويقفان فوق أرض مناسبة، كان أولهما في وسطها، وكان الثاني عند الطرف الشمالي لسهل كثير الشجر، خاصة أشجارالسمر ذات الأزهار البيضاء، إلى جانب عدد كبير من أشجار العدن. كانت هنالك بعض حقول دخن على الأطراف الغربية لهذا السهل تتبع لأهل المجروب وسرداح الرباح، بينما بدت بالكاد وعلى بعد ملامح قرية القفل الكبيرة على الشاطئ الأيسر لوادي لية وهو رافد مهم لوادي حلب.

عبرنا بعد قليل فيما يلي هذا السهل مجرى وادي منجر الصعب الضيق، الذي يهبط من سفوح جحير ويتصل في نهاية الأمر مع وادي تعشر أعلى صامطة. وصلنا فيما يلي جانبه الأيمن إلى عمود منجر الحدودي (رقم ١٩٨) وهو كومة من حجارة كبيرة. كنا نصعد تدريجياً دون أن نحس بذلك، ونحن الآن على ارتفاع ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. كان الوقت ظهراً وحاراً تحت الشمس وقد أحضروا لنا الماء من قرية عواجي التابعة لسرداح الرباح، وقد سرني أن أجدهم هذه المرة يقدمون لي أول كوب منها. يتصل مسيل من سفوح شقدام مع منجر على مسافة نصف ميل تجاه أعلى الوادي في أرض اليمن تحت سلسلة عشة سعيد التي تمتد عبر الحدود، التي تجري إلى مضيق منخفض في وسطها وبه علامة حدود توضيحية (رقم ١٩٧).

لم يكن حسن الفقيه -الذي كان نشطاً في حرب عام ١٩٣٤م يحارب مع قوات الإمام في السفوح الجبلية حول عنم، على مسافة عشرة أميال شرق موقعنا الحالي عند المضيق- سعيداً فيما يخص خط الحدود في هذا القطاع من بنر شمالاً. كان رأيه أن يعد الخط من أبام سول إلى الطرف الجنوبي لسلسلة بنر ومن هناك على امتداد سنام سلسلة السفوح الجبلية الخارجية حتى هذا المضيق، وألمح إلى أن

اللجنة الحدودية بشقيها قد تناولت الرشاوي من القبائل اليمنية لتضع الحدود قليلاً ناحية الغرب. لم يكن الأمر يهم كثيراً إلاَّ أن لحسن أحزانه الشخصية. كان يمتلك عقاراً في وادي تعشر تجاه أعلى الوادي بالنسبة للحدود، ولكي ينهي علاقته في اليمن فقد باع هذه الأرض. تقع قرية منجر الصغيرة التي يمتلكها أهل بني جرح التابعون للمراوين، أسفل من موقعنا في الوادي على بعد ٥٠٠ ياردة وتبدو أنها في الجانب اليمني، بينما تقع قرية حداد السعودية (أو رزم سودة) التي يسكنها بني حدّاد وتحتوي على بناء واحد بين عشش الوتل، قليلاً على يسارنا على الرافد الصغير الأول والذي يسمى وادي مغايلة.

نقلتنا الحمير الآن إلى السفح العكسي لعشة سعيد إلى حيث العمود الحدودي عطيانة (رقم ١٩٦) وهو كومة صغيرة من حجارة على قاعدة مربعة من صخر طبيعي فوق مساحة من أرض صخرية تزينها العديد من أشجار العدن التي يبدو أنها تعيش على أدنى درجات من التربة. قوبلنا بعد خمس دقائق أخرى، عند نهاية حقول زراعتهم بوفد من قبيلة الحكامية يرأسه شيخهم محمد حسن ضكام. أخذنا طريقنا بتوجيه منهم عبر المتاريس والحفر داخل حقولهم التي يسمونها عطيانة على الرغم من أنها تنتمي إلى قرية (أبو الرديف) التابعة للحكامية على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى أسفل المنخفض الضحل الذي يضم كل القرية. يخترق خط الحدود، كما قد رأينا حينما وصلنا إلى عمود التذكار غير الطبيعي الحدودي الذي يسمى فشالية (رقم ١٩٥) الذي يطل على القرية، المزارع دون كياسة ويترك ثلثها داخل الجانب اليمني، وهو امتداد طولي بحوالي ٥٠٠ ياردة إلى قدم تل محمر الذي ينتج عنه المنخفض. على الرغم من هذا الوضع الغريب لشريط الحدود، والذي كان يمكن رسمه ليتضمن كل مساحة القرية في مملكة واحدة، فإن الحصافة

الدولية قد تدخلت لتصدر حكمها بأن الحقول التي على الجانب اليمني ستعامل بكل الطرق خاصة فيما يختص بالضرائب كأنما هي واقعة داخل أراض سعودية مثلها مثل غيرها. ويمر مسيل (أبو جريدة) الذي ينحدر من سفوح محمر، إلى أسفل مباشرة فيما يلي العمود الحدودي إلى ري الحقول الأبعد إلى أسفل.

تقع القرية الصغيرة ذات البناءين، أحدهما مربع والآخر مستدير، وعششها المنتشرة على جانبه الأيمن، إلى مسافة فوق موقع التقائه مع وادي مغايلة. كانت قرية تبدو مزدهرة مقارنة بمعظم القرى التي كنا قد رأيناها وترتفع إلى ٨٠٠ قدم فوق سطح البحر.

يقف العمود الحدودي التالي واسمه عشة زبادي (رقم ١٩٤) على السلسلة البعيدة للمنخفض وتطل على بعض الحقول الخارجية التابعة لأبي الرديف. أمكننا رؤية الموقع الذي يخرج منه وادي مغايلة، أمامنا، من السفوح الجبلية ليبدأ جريه عبر السهل، والذي يتصل فيه مع وادي تعشر عند قرية مجر أسفل صامطة. أفصح حسن الذي سئم من المسيرة وتكاسل عن غروره ليخبرني أن مجر على بعد مسافة ميل واحد، علماً بأن موقع لقاء مغايلة وتعشر يجب أن يكون أبعد من ذلك. نستطيع –حقيقة– رؤية قرية أم أمسلم، على بعد تلك المسافة وأم أمعود في منتصف الطريق إليها، وهما على مجرى أبو النورة، الذي يتصل مع أبي جريدة في طريقه إلى مغايلة. يبدو أن الحكاميين من أصل بني مروان وقد لاحظت أنهم وآل مخلوطة في هذه الأنحاء يشبهون البدو في حضرموت باستبدال الكلام بالإشارة. لم أستطع التعود على هذه العادة، برغم أنه ليست هنالك وقاحة متضمنة. لقد وجدتها على أي حال، مزعجة جداً في حالة محمد، شيخ الحكامية، الذي كان شاباً غير جذاب يتعب قبل أوانه. ساورني الإحساس أنه لربما

أضاف العجرفة لمآخذه الأخرى إذا تجرأ، وقد أمتعني بصفة خاصة أن أحفظه إلى جانبي كل الوقت خلال تلك المسيرة الكئيبة.

بدأ حسن يضعف تحت الضغط، وقد اعترف لي خلال الظهيرة بأنه لم يحس بمثل هذا الإرهاق طيلة حياته كما حدث خلال اليومين الآخرين. كانت معلوماته الجغرافية -على أي حال- مفيدة لي، وقد تجاهلت استعراضه للكسل ومحاولاته الأخرى ليكون فظاً وقد تضخمت هذه بهيئة فمه المزموم الذي يوحي بالميل للبصاق. أعطيته عشرة ريالات هدية حينما افترقنا في مغايلة صباح اليوم التالي. وقد قبلها مني -لدهشتي- علماً بأنه قد رفض بحزم أن أقوم بدفع ثمن الشاة التي أحضرها لنا لوجبة العشاء تلك الليلة. أبرز هذا الغريزة الحقيقة للكرم، شريطة ألاَّ تتعدى حدودها، وقد أعطيت ثمن الشاة على أنه هدية للخادم الذي أحضرها لنا. كان سعرها ريالين أو ثلاثة بعملتنا!.

كانت الساعة الثالثة مساءً حينما غادرنا عشة زبادي، وقد هب علينا نسيم منعش لطيف ونحن نعبر مجرى (أبو النورة) لنصل إلى العمود الحدودي أم تعس (رقم ١٩٣)، وقد اكتسب اسمه من قرية صغيرة بهذا الاسم على مسافة ٥٠٠ ياردة، تتبع قسم بني علي التابع للحكامية. كان العمود صغيراً غير أنه جيد البناء، على الرغم من أنه محاط بتلال منخفضة حجبت منظر المحيط المجاور عنا ما عدا عدداً قليلاً من حقول القرية، لم تكن قد زرعت حديثاً. سرنا من هذا الموقع إلى قرية محجن في انطباق للتلال مع حقول مستوطنتها الصغيرة التي تسمى بني جرح (مروان). يقف بجواره عمود آخر صغير، من مخلفات حدود قبلية قديمة، إلاَّ أنه لم يكن ضمن علامات الحدود الرسمية.

حاول العديد من رفاقي، عند هذا الموقع التهرب، مفضلين الراحة في القرية على السير الصعب للوصول إلى عمود محجن الحدودي الرسمي، على مسافة دون عشر دقائق، غير أنني أصررت على أن يواصل الجميع المسيرة معي. يخترق خط الحدود مرة أخرى منخفضاً تمتد في أعلاه مزارع محجن إلى حوالي ٥٠٠ ياردة داخل اليمن – غير أن هذه المعضلة قد تم التغلب عليها بالاتفاق بمعاملة هذا الجانب في كل الأغراض العملية كأنه جزء من المملكة العربية السعودية. لاحظت أن الحقول التي بدأ بعضها وهو أخضر بمحصول الدخن الجديد، تنتشر فيها الأكوام الحجرية، ليس كمواقع حدودية، بل كفزَّاعات لطرد القرود المتلصصة. كان عمود محجن (الرقم ١٩٢) من تسلسل الحدود ويقع تجاه الشرق لعمود القرية. هبطنا من السلسلة المنخفضة فيما يليه، ناحية الشمال، لنعبر وادي قماري، وهو رافد آخر لمغايلة، ينبع في الأراضي العالية حول نقرة، ووصلنا إلى عمود عشة كيال (رقم ١٩١) على الجانب الأيسر لمجرى آخر هو وادي ضبب، ينبع من المنطقة نفسها. بدت التلال الحدودية التي تنهض في خطوط كفافية دائرية هناك من السلاسل المنخفضة المتموجة على جانب السهل، وكأنها قطيع من الدلافين تغطس في بحر هائج.

استرحنا هنا بعض الوقت لتناول بعض المنعشات، وقدمت بعض الخبز للمجموعة، وذهب بعضهم إلى داخل حقول الذرة وعاد ومعه أكواز للذرة غير مستوية. كانوا يشوون هذه الرؤوس فوق نيران أعواد الدخن القديمة، ثم يضربون الرأس على الصخر لاستخراج الحبوب ويأكلونه نيئاً. تقع قريتا قلقل ومفجر الصغيرتان، ومعهما مساحاتهما المزروعة الصغيرة، على بعد نصف ميل من موقعنا على امتداد ضبب الذي عبرناه الآن لنصعد السلسلة المنخفضة المتعارضة التي تسمى عشة سرير إلى حيث العمود الحدودي (رقم ١٩٠) عند طرفها الجنوبي الغربي.

كان اسم العمود التالي هو دمنة السيد (بثرة السيد)، ويقع على الجانب الآخر لمجرى السيد فيما يلي السلسلة، وبعد مسيرة على الأقدام مدة خمس دقائق وصلنا إلى موقع المعسكر على الجانب البعيد من وادي مغايلة نفسه عند موقع خروجه من السفوح الجبلية. استقر حرسنا المتقدم فوق قطعة نظيفة من أرض مسطحة بجوار العمود الحدودي (رقم ١٨٨) على مسافة ٥٠٠ ياردة اتجاه أعلى الوادي من أم نشم وهي قرية صغيرة تتبع بني حداد (مروان)، وسرعان ما بدأت أستكشف المحيط المجاور. كان كلا جانبي المجرى مغطى بأشجار السمر والضبر والعدن بكثافة إلى جانب نموات أخرى أصغر، وكان بطن الوادي معلماً بشريط طويل من برك صخرية متصلة مع بعضها بواسطة جدول منساب رفيع. كان ارتفاعنا هنا حوالي ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر وكانت دنيا الطيور ثرية كما في وادي تعشر. أصبت بالرصاص طائر وقواق أثناء الليل.

كان يعشعش في أغصان كثيفة الورق لشجرة علب. كما تحصلت على درَّسة الصخور. وجدت إلى جانب هذين (أبو مطرقة) وهو يعشعش بينما كانت العجلة بالطبع متوافرة إلى جانب طيور أخرى منها البلابل والشادي الأورفين والبلاكستارت وصنفين من السنبيرد. يلبس أكثر الناس ثراء في هذه الأنحاء معطفاً صغيراً أسود (بلا قميص) فوق الجزء الأعلى من جسمهم إلى جانب الخرقة العادية فوق العورة. ويلبسون فوق رؤوسهم قلنسوة ضيقة من القش أحياناً تلف بعمامة.

يكون وادي مغايلة من هذا الموقع وإلى الشرق حدود الدولة، بينما يفصل خط داخل الجانب السعودي، ينطلق شمالاً من العمود الحدودي قبيلة بني حداد تجاه الغرب عن بني حارث، في بلاد ذات سفوح جبلية كثيفة الأشجار، كان السفر منها متعة، على الرغم من أن المسيرة كانت أحياناً مرهقة، وذلك بعد

مسيرتنا الكئيبة على حافة السهل. لم يصل شيوخ بني الحارث إلى المعسكر حتى منتصف الليل، ولم نكن نحن في عجلة من أمرنا لنبدأ صباح اليوم التالي. أخذت حماماً جيداً في إحدى البرك ووجدتها مليئة بالسمك كان بعضه بأحجام معتبرة. تنحدر صخور الجوانب في طبقات تميل على درجة ٢٠، وكان بطن الوادي، وهو أيضاً من الصخر، ينحدر في مدرجات واضحة أملستها حركة المياه المتواصلة. تكون سلسلة سرير الجانب الأيسر للوادي، وتكشف عن وجه جلمود يرتفع إلى ٣٠٠ قدم، وينحني بعنف تجاه الشمال مسافة نصف ميل تجاه أعلى الوادي من معسكرنا، على الرغم من أن الوادي يواصل مرة أخرى مجراه شرقاً ويتلقى على جانبه الأيمن مسيلاً رافداً لينحدر من السفوح الغربية لجحفان.

وجدت تذكاراً صغيراً في منحنى المجرى، لعله قبر وجيه محلي ويتكون من كتلتين كبيرتين من صخر تفصلهما مسافة خمس خطوات وارتفاعهما ستة أقدام وثلاثة أقدام ونصف القدم. يملأ الفراغ بينهما صف مستقيم من فتات صخور صغيرة، بينما اتصل بهما من جهة الشمال خط مشابه إلاَّ أنه مقوس وكانت المسافة بين الخطين عند الوسط قدمين أو أكثر بقليل. لم أستطع استنباط أي معلومات حول هذا الشكل، بالرجوع إلى مرشدي. وصلنا بالقرب منها حيث ينحني الوادي جهة الشرق إلى صخرة ارتفاعها ١٠٠ قدم من الطين السفحي على الجانب الأيمن، ثم إلى العمود الحدودي المسمى منبر عالية (رقم ١٨٧). اتسع الوادي من هذا الموقع وتسطح أثناء مغادرتنا للمركز الصلد الخارجي للسفوح الجبلية إلى الخلف، ودخلنا منطقة السفوح الجبلية نفسها، وهي أرض متدحرجة تكسوها غابة كثيفة خضراء وشجيرات وأشجار صغيرة. يدخل إلى هذا المثلث الواسع، وادي ثميرة من الغابة ناحية الشمال عند موقع يعلمه العمود الحدودي (رقم ١٨٦) والذي

يسمى أم لبـيدة وعلى مـا يبدو فإنه يعلم النهـاية اتجاه أعلى الوادي لوادي مـغايلة الجاري بالفعل. لم تكن النهاية مع اتجاه التيـار، حسب علمي، أسفل كثيراً من قرية أم نشم الصغـيرة، إلاَّ أن الجدول الجاري يعـود للظهور على فتـرات في المجرى مع موقع التقائه مع تعشر.

واصلنا سيرنا فوق مجرى مغايلة، وقد تجمعت القرود من الجوانب من حولنا وهي تشفي غليلها على شجيرات الغابة التوتية الثمار، ووصلنا بعد ٢٠ دقيقة إلى العمود الحـدودي جهر العبد (رقم ١٨٥)، على الجـانب الأيمن داخل أجمة طلح كثيفة. تقابلنا هنا مع وفد شيـوخ عواجي الذين كنا قد غادرنا أراضيهم وراءنا غير أنهم رأوا من الضرورة الاعتذار لنا حول فشلهم في الترحيب بنا أثناء مرورنا خلال أرضهم. كانوا متغيبين في الخوبة، حيث جمعهم ضابط المنطقة لمناقشة أمور محلية مع شخصية مهمة هو عبدالله بن الوزير، حاكم الحديدة وتهامة اليمن، والذي كما ورد من قبل، كان في زيارة في هذا الوقت لحاكم جازان فيـما يتعلق بأمور منبثقة من المعاهدة. لقد رافقونا الآن إلى معسكرنا التالي وأخبروني أن تل جحفان، الذي تكشف صخوره الصلبة على جانبه الشرقي عن توضيح ممتاز للتكوين الطبقي لهذه التلال الخارجية، يحمل على قمـته أطلال قلاع قديمة تعزوها الروايات المحلية إلى قبيلة بني هلال.

كانت نقطة تـوقفنا التاليـة هي عمود جـضة أسـفل آل أم رحا (رقم ١٨٤)، والذي يدل اسمه الطويل أنه مـشتق من قرية رحا إلى الأمام منا، وكـان عبارة عن حصى قليل منتشـر على هيئة النسر على الأرض، التي تكونه. كـان العمود على الجانب الأيمن مثله مثل أعمدة المغـايلة حتى الآن، للمجرى المتلوي الحصوي الذي كنا قد عبـرناه، ثم أعدنا عبوره عدة مرات لـتقويم خط مسيرتنا. أصـبحت البلاد

مزدهرة أكثر وأكثر ونحن نخترقها وهي الآن غابة من أثل ومظ وسمر وسلم وضبر وأراك ونباتات الغلفة الطفيلية الزاحفة – تجمع عظيم لغطاء نباتي وكثيف ويمكن العبور فقط على مجرى الوادي نفسه. وصلنا بعد ١٥ دقيقة إلى عمود متلع (رقم ١٨٣) أيضاً على الجانب الأيمن وقليلاً أسفل بركة كبيرة في المجرى، وفوقها ثقب مائي مستديم، ماؤه ممتاز. كانت هنالك راعية شابة وصبي صغير وهما ينعشان أنفسهما حين وصولنا، ورأيت في شجرة حمرة قريبة (تمر هندي) زوجاً من الحمام الأخضر.

تمكنا الآن من منظر ممتاز للتل الهرمي البارز الذي يسمى عنم، والذي كان قد أشير لي نحوه في معسكرنا في المثعن. أنه يشرف على كل هذه الأرض الكثيفة الغابات في عظمة منعزلة وقد ارتفعت سفوحه المغطاة بالأشجار إلى ٥٠٠ قدم فوق المستوى العام. كانت العلامة الحدودية التالية وهي مضَّه (رقم ١٨٢) مجموعة حجارة كئيبة عند قدم ربوة صغيرة تقف على مسافة ٢٠٠ ياردة إلى الوراء من الجانب الأيمن للمجرى، وأهم نقطة لافتة للانتباه هي أن بوصلتي بدأت تعمل بشكل غريب بتأثير البازلت الذي يتخلله الكوارتز الذي يتكون منه التل. عدنا فوراً إلى مجرى مغايلة، ووصلناه عند موقع ثقب ماء أنصار قليلاً أسفل موقع تدفق رافد صغير لشعيب إيحار من سلسلة تحمل الاسم نفسه على مسافة من الجانب الأيمن. رأيت وحاولت الإمساك بطائر الوقواق إلاَّ أنه اختفى بهدوء داخل أجمة أشجار الغلفة. وصلنا إلى مسافة قليلة تجاه أعلى الوادي إلى بركة مياه راكدة عند قدم كوارتز ضيق والذي وقف فوقه العمود الحدودي التالي (رقم ١٨١) وهو كومة حجارة جيدة من كسارة الكوارتز ويسمى محرم أم صبيا (أم حرم). انتشرت هذه الربوة وغيرها في الجوار وارتفعت إلى ١٠٠ قدم فوق مستوى السهل.

تقف على مسافة ٥٠٠ ياردة عشش قليلة من الأعواد تابعة لمستوطنة قيم التي يسكنها الرعاة الذين ينتمون إلى قسم ابن جـرح التابع لقبيلة مروان، على الجانب اليمني من خط الحدود. توجد هنا ثقوب مـائية عديدة في بطن المجرى الرملي مع أحواض طينية ضحلة لتشرب منها الحيوانات. يدخل مسيل شعيب عسمي الصغير إلى المجرى من الجانب اليمني، ويجري مـن هذا الموقع وإلى مسافة أعلى، جدول نحيل من مياه الغيل وهو يتقطع مع وجود برك صغيرة من حين لآخر. كان مجرى مغايلة مـبطناً بجدران من الصخر على شكل الألواح (ربمـا شستية) ولونهـا بصفة عامـة داكن مع شرائط بيضاء أو حـمراء. توقفنا هنا لتـناول المنعشات الاقتـصادية المكونة من الخبز والشاي ولأداء صـلاة الظهر. كانت بقعة جذابة وتفضّلهـا، فيما يبدو طيـور الدرسَّة الصخـرية وإلى جانب هذه فـقد رأيت بعض طيور الشـقراق الحبشي. وقف عمـود حدود حد الحميضة (رقم ١٨٠) في الجـوار، وعلى مسيرة عشـر دقائق على الأقدام إلى أعلى منه يوجـد عمود حدودي آخـر واسمه مفـجر المحدق (رقم ١٧٩) عـند موقع الانسـياب الداخلي لمسـيل أم باب الصغـير الذي ينحدر من التلال التي تقع إلى الشمال. كان الجدول الجاري منساباً، غير أنه استمر إلى ياردات قليلة فوق هذا الموقع.

كان مجرى الوادي منسداً تماماً بكثافة الأشجار والشجيرات، مما دفعنا للذهاب عن طريق شعيب محدق الدائري، وهو رافـد ثانوي على الجانب السعودي والذي كان يوجد في مجراه كثير من الالتواء، ميـاه راكدة غير متحركة إطلاقاً. تركنا هذا المسيل لنتسلق إلى أرض كثـيفة الجنبات وشائكة إلى هضبـات منخفضة والتي عن طريقهـا رجعنا مرة أخرى إلى الوادي الـرئيس بجوار عمود دشـيلة الحدودي (رقم ١٧٩ أ) إلى الخلف قليلاً من الجـانب الأيمن. كان المجرى لا يزال مختنـقاً بالنمو

التحتي للنباتات، ولزمنا الجانب المرتفع من الأرض، وهي أرض عارية، متدحرجة، إلى أن عبرنا مسيل مفجر نشافة قليلاً أعلى موقع اتصاله مع مغايلة، التي دخلنا إليها مرة أخرى فوراً فيما بعد لنسير فوق قسم آخر من المياه الجارية. كان المجرى هنا ضيقاً ويقع بين منحدرات سهلة تكسوها الحشائش والنمو التحتي وبعض الأشجار. رأينا بالفعل بعض الغزلان تنطلق بعيداً ونحن نقترب، وسرعان ما تملكنا الحماس للبحث عن بومتين كبيرتين بنيتين – ربما البوم قصير الأذن – كنا قد أزعجناهما بدخولنا مخبأهما الهادئ. لم ننجح في ذلك. وكان علينا مغادرة الوادي مرة أخرى بسبب الموانع الطبيعية لنبحث عن العمود الحدودي التالي خلفة أم سبقة (رقم ١٧٨) وهو يقف على مسافة نصف ميل إلى الخلف من المجرى. يمكن رؤية عدد من القمم العالية من هذا الموقع داخل وتر واسع كانت قمة عنم أحد نهاياته. وقف إلى جواره محجم وسلسلة كبيرة حادة القمة تسمى شعاراً ولها قمة عند كل من الطرفين. يبدو أن هذا الشريط من الأراضي المرتفعة تكون نظيراً داخلياً في هيئة سلسلة التلال الخارجية، وتبدو البلاد بينهما كما تشاهد من هذا الموقع، وكأنها غابة.

انحرفنا عائدين إلى مغايلة، دخلنا المجرى مرة أخرى لنسلك مياهه الجارية مارين بتتابع من البرك ينحدر من خلالها. أوصلنا هذا المجرى إلى عمود إبادية الحدودي (رقم ١٧٧) وقد اكتسب اسمه هذا من حقول تتبع قرية صغيرة على الجانب اليمني من المجرى. يوجد ثقبان مائيان في بطن السيل الجاف لحياض أم سودة، ولما كان موعد غروب الشمس قد شارف، فقد قررنا أن ننتهز هذه الفرصة ونعسكر بجوارهما لقضاء الليلة. كانت الأرض على الجانب اليمني ملائمة أكثر

لإقامة المعسكر، وعليه فقد قضينا ليلة مريحة في تلك الدولة. كان ارتفاعنا حوالي ٨٠٠ قدم فـوق سطح البحـر ولم يكن هنالك ندى، غيـر أن المرء يحس برطوبة واضحة في ساعـات الصباح الباكر، ويعزى ذلك بلا شك لـوجود الغيل الجاري. تقع في مقابل قرية العـبادية الصغيرة وعلى الجانب السعودي، قـريتا الحضن وقيم وليستا بالبعـيدتين، لا توجد آثار لحياة البشر فيمـا عدا ذلك، بينما توافرت القرود ويبدو أنهـا تعيش في هذا الموسم بتناول ثمار المظ الـتوتية. كانت الحـشرات نادرة بشكل مدهش في هذا الموقع كما في مغايلة إذا ما اعتبرنا كمية الغطاء النباتي، غير أن هذا قد يعزى لحقيقة أننا في الليالي ذات القمر المكتمل.

ذهب محمـد بن طَرَد شيخ قبيلة (بني حارث) بعد غـروب الشمس إلى قرية يمنية وعاد ومعه قحف كبير مملوء باللبن خاصة لي ومـصحوباً بتوكيد متشدد برغبته في خدمتي بكل وسيلة ممكنة. لقد كان وبكل تأكيد لطيفاً ودمثاً أثناء النهار غير أن أخطر مآخذه أنه يجهل بدرجة مدهشة بلاده. لقد عوّض عن ذلك بأن أحضر معه رجـلاً يعرف الأرض جـيداً، وأشك أننا كنا نـستطيع الوصـول إلى كل الأعمـدة الحدودية لولا مسـاعدته، أو حتى أن نستـدل على طريقنا حول العقـبات العديدة المختلفـة التي واجهتنا. يعـود أصل الحرّث إلى حارث بن عبـاد. قيل لي إن هذه حقيقـة يدركها كل حارثي منذ مولده، وهذا كان كل مـا في الأمر. كانوا يجهلون تماماً أصلهم أو علاقاتهم مع سلفهم، فيما عـدا روايات محلية غامضة بأن قبيلتهم قد جاءت إلى هذه الأنحاء من جهة الشـمال وليس من اليمن. لذلك من المحتمل أن يكونوا من أصل قحطـاني. تنتمي القرى الصـغيرة على جـانبي الخط الحدودي إلى آل بني مروان. فقـبيلة ابن جرح تقع على الجانب اليـمني، وعبادل تقع على الجانب السعودي. وتشـتهر قبيلة ابن جرح بكثرة اللصـوص، غير أن الليلة مضت

بسلام فيما يخصنا نحن. كانت كما أذكر هذه أولى ليالي الشهر التاسع لرحلاتي، وأطول الرحلات العربية التي قمت بها، غير أنها تشارف نهايتها الآن. كان اليوم هو ٢١ يناير، وبقى على الحج شهر واحد، أتمنى أن أدركه بالعودة إلى مكة.

تتجه الحدود شمالاً مرة أخرى من هذا الموقع عبر بلاد الغابات عند قدم سلسلة شعار، التي تقع بكاملها في أرض يمنية على يميننا، وتجري سلسلة الجبل الرئيسة شمالاً وجنوباً من ورائه مع قمم أخرى من حين لآخر مثل ضويب والظهر ومفتاح وقد وضحت شاحبة خلال الضباب.

بدأنا رحلتنا عند الساعة ٩ صباحاً وغادرنا قرية الحضن تاركينها على يسارنا لنصل إلى عمود أبام عتب الحدودي (رقم ١٧٦) في وسط أرض كثيفة الأشجار، والتي كانت صخورها المكشوفة من الشست المايكا مع وجود عروق متكررة وبروزات من الكوارتز. كان العمود الحدودي التالي مرئياً ناحية الشمال بين موقعنا فوق سلسلة مرتفعة إلى حد ما تفصل بين رافدين لمغايلة – هما وادي ابن عبدالله من جهة الشرق، ويتصل مع المجرى الرئيس فوق معسكرنا ووادي سمسري على الجانب الآخر، والذي لا بد أن يكون عمقاً عالياً لمفجر نشافه. يطلق على هذا العمود الحدودي اسم أبام عتبة أم إيمان (رقم ١٧٥) لتميزه عن العمود التالي واسمه أبام عتبة أم إيشام (رقم ١٧٤) فوق سلسلة مماثلة أمامنا. يجري مسيل أم هد بين هاتين السلسلتين، والذي يجري إلى أسفل ناحية الغرب ليتصل مع سمسري، بينما تبدو سلسلة المسيل الآخر – لقد تسلقنا في هذا الموقع إلى ١٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر – مكونة مستجمع الأمطار الذي يقع بين نظام مغايلة وخط صرف وادي لية، الذي أمكننا رؤيته أمامنا وعلى مسافة معتبرة أسفل موقعنا. ينحدر شعيب إيحار وقد ورد أنه رافد لمغايلة من هذه السلسلة وينساب

ناحيـة الشمال الغـربي حتى تغـير اتجاهه انطواءات الغـابة غرباً أو ناحـية الجنوب الغربي إلى داخل الشريان الرئيس. ينبع شعيب مسير أيضاً من هذا الموقع وينساب على امتداد قـاعدة سلسلة قميرة في طريـقه ليتصل مع لية عند مـوقع خروجه من السفـوح الجبلية. يقـال إن وادي لية نفـسه ينبع من جبل مـرَّان المرتفع في سلسلة السرات الأصليـة ويدخل في نهاية المطاف في سـهل تهامة، بين الـنهاية الشمـالية لحجفان والـنهاية الغربية للرميح، الذي تكون سلسلتـه الطويلة الجانب الأيمن لليَّة إلى مسافة إلى الخلف.

من هذا الموقع تمكنت من التقاط منظر شمولي للتـركيب الجغرافي لهذه البلاد -خط خارجي من تلال- يتراوح ارتفاعها في المتوسط إلى ١٥٠٠ قدم فوق سطح البحر عند قـممها وتجـري شمالاً من أسفل حرض، ثم داخـل هذا الحاجز تكون التلال الكثيفة الأشجار أحواض الأودية الرئيسة -تعشر، ومغايلة ولية- وتصل إلى قاعدة الحاجز التلي الداخلي الذي يصل ارتفاعه في المتوسط إلى ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحـر ويتضمن عنـم وشعار وغفـير.. إلخ، ومن خلف هذه تأتي كـتوف والجدار الرئيس لسـرات نفسه، والذي يسمـونه هنا ساق الغراب. أمكننا التـعرف على القمة أقصى الشمال وهي شـدع، وبجوارها ناضر وحرم على يمينها ثم مران وتلان مع بعض المرتفعات المماثلة والتي لا أذكر أسماءها، ثم إلى أسفل عبر غولا ومفتاح إلى ضويب وجريز إلى الشرق من حرض. كما أمكننا رؤية مجرى قصب فيما يلي سلسلة الرميح، وهو رافد لية وينحدر من تل مرتفع يسمى حماطة على الجانب اليـمني من الحدود. يواجه تل دخـان حماطة من الجانب السـعودي ويطل على الخوبة.

رغب رفاقي في التوقف في الحضن للشرب بعد عشر دقائق من بداية الرحلة، وقد رفضت ذلك، برغم أن المياه قد أحضرت لنا عند هذا العمود الحدودي، حيث قضيت ساعة أستوعب كل تفاصيل المنظر العام، مع كوب من الشاي وغليون التبغ ككماليات تلائم هذه المناسبة. علمت، بالمناسبة، أن الحرث (أيضاً حوارثه) على الجانب السعودي للحدود يتبعون قبيلة حزاحز، بينما قبيلة أخرى منهم وهي أم عقارب تحتل شعاراً والسفوح الملامسة على الجانب اليمني. كان العمود الحدودي بجوار معسكرنا، حقيقة، نقطة لقاء ثلاثي للقبائل. ويفصل الحارث السعوديين من أخوالهم في اليمن ويفصل هؤلاء عن ابن جرح مروانية. كنت مندهشاً بأمر عمود عتبه الحدودي، لأنه ليس موضوعاً فوق القمة الفعلية للسلسلة، إذ إنه يقف على مساحة ٢٠ قدماً أسفلها. توضيحاً لهذا فقد قيل لي إن لجنة الحدود لم تر أنه من الضرورة التسلق فوق هذه السلاسل العالية، وقد سلكوا الطريق المنخفض بمحاذاة الأودية الداخل إلى مسيار ومنه إلى لية. ترك أمر وضع العلامات الحدودية للبدو الذين رافقهم موظف ثانوي، اسمه عبدالله بن شرقة الذي كنا قد قابلناه في وظيفة ضابط منطقة في بلاد بني مالك.

استغرق وصولنا إلى نهاية السلسلة حوالي ٢٠ دقيقة لنفحص عمود كمح الحدودي (رقم ١٧٣)، فوق هضبة منخفضة تطل على الغابة إلى أسفل، والتي هبطنا إليها بمقدار ٤٠٠ قدم. كان يوماً لطيفاً ذا سحب مع نسيم متقطع، غير أن الزحف أعلى وأسفل السفوح الشستية الصعبة في هذه التلال ذات الغابات إلى حيث عمود قيم بشير الحدودي (رقم ١٧٢) كان مرهقاً. كان العمود يقف في وسط بلاد متدحرجة منخفضة تخترقها خطوط صرف عديدة وتكسوها نموات

أدغال مـزدهرة متفيناً نبـاتاً يسمى ضحـية أو رنفة لم ألحظه من قـبل. كانت هذه الأرض أرض مراعٍ ممتازة وقد شاهدت مجموعات من الأبقار في الجوار خاصة في حوض شعـيب خويرم الضحل الذي ينحـدر من قميرة ويمر إلى الشـمال من هذا العمود ليتصل مع مسيار. يقع بالقرب منا قبر أحد الرعاة، ويبدو كأنه تذكار مبني من ألواح ضخـمة من الشـست. بادلتنا التحـية، أثناء جلوسنا هنا، فـتاة لا يزيد عمرها عن ١٢ أو ١٣ سنة ترافقها شقيقتها الصغرى، تركتا أبقارهما ليعاينا هؤلاء الدخلاء ولم تبـديا أي علامة من خجل أو خـوف. كانتا تلبسـان قبعات عـريضة الحافة، عالية التاج من الخوص، وكانت ابتسـامة الفتاة الكبرى جذابة، كاشفة عن طقم كامل لأسنان بيضاء، وأضافت طرفة عين ضـاحكة. بدت في تناسقها وكأنها تمثال منغولي ذو نظرة مـحترمة بعيدة. لقد أقـبلتا من قرية عرقين اليمنيـة وتنتميان إلى قبـيلة ابن حـداد. أعطيناهما خـبزاً، وصـببت كوب شـاي لكل منهـما دون تحذيرهما أنه ساخن، كانت دهشتهما شيئاً جميلاً.

عبرنا منخفض برا العريض فيما يلي خويرم، وهو أيضاً رافد لمسيار الذي كما قالت الفتاتان، ينساب ليس إلى لية وإنما إلى إيحار ومنه إلى مغايلة. لم أقتنع تماماً بما ورد عن هذه النقطة المهمـة جداً، واكتفـيت بأن أورد كلا الروايتين. وصلنا إلى كومة من بلكات كوارتزية بعـد سيرنا فوق سفح كثير الشـجر، موضوع فوق بروز من الصخر نفسه، تمثل عمود ضُبَيْرَةُ الحدودي (رقم ١٧١)، وقد اكتسب اسمه من قرية ضبيرة التابعة للحزاحـز على مسافة نصف الميل ناحية الجنوب الغربي بالقرب من الجانب الأيسر لوادي لـية. نستطيع الآن رؤية الموقع الذي تم اختـياره لمعسكرنا هذه الليلة وقد حدده رفـاقنا الذين كانوا في صحبة الـعفش على الأودية السفلى. كان المعسكر يقع على الجانب الأيمن لوادي لية بالقرب من هـضبة منخفضة تسمى

جعوة ابن خضرة، ونستطيع رؤية المجرى وهو يدور ناحية الغرب من موقع قريب من ضبيرة، ليتصل مع وادي صامطة الذي يأتي من قدم سلسلة الرميح، قبل أن نعبر إلى السهل إلى الشمال من جحفان. تقع فيما يلي معسكرنا قرية جراحيات بينما تقع قرية تسمى معيان على مسافة الميل الواحد إلى الشمال. وصلنا بعد مسيرة ٢٠ دقيقة عبر الغابة إلى مجموعة من برك راكدة عند موقع التقاء شعيب جلامين مع وادي ليه، الذي كان به جدولاً جارياً. كان موقع الالتقاء الفعلي معلّماً بنتوء يرتفع إلى ٢٠ قدماً من صخر طبيعي، والذي منه ألقيت نظرة على المجريين ناحية الشمال الشرقي وناحية الشرق بالتوالي. كان بالقرب منه عمود حشيرو الحدودي (رقم ١٧٠) على قمة الربوة المسطحة الكثيرة الشجيرات والتي منها اشتق الاسم. يبعد معسكرنا حوالي ٢٠٠ ياردة وقد وصلناه عند الساعة الخامسة مساءً بعد نهار قصير ومثير. كان رفاقي، مثلهم مثل كل الناس في هذه البلاد الجبلية، مدمنين –عادة– مضغ البرتقال ويمكن متابعة طريقنا عبر الحدود بيسر بما بصقوه من قطع حمراء أثناء مضغهم.

امتلأت السماء بالسحب وقد تتابعت قطرات من المطر بالفعل في المساء، ثم تجمعت السحب أكثر في وقت لاحق وأصبحت مهددة لنا. لا بد وأن تكون التلال المرتفعة تحت المطر، غير أن ليلتنا قد عبرت دون هطول المطر، ولم يكن هنالك ندى. لم تكن هنالك حشرات، برغم السحاب، أو أن ضوء مصباحي الساطع لم يجذبها. عوضت حشرة واحدة عن غياب البقية. كانت تلك هي البعوض التي لم تكن موجودة كثيراً خلال هذه الليالي إلاَّ أنها الآن ظهرت بأعداد خيالية وفي حالة شرسة بالفعل. كان من المستحيل الابتعاد عنها حتى بعد إطفاء الضوء وقد واصلت نهبها إلى ما بعد الفجر. تم تعريف العينات التي قمت بجمعها هنا فيما بعد على

أساس أنها (Anopheles gambiae) التي كانت تعرف مـن قبل في جدة وفي محمـية عدن بكونها حـاملة للملاريا. ولما كان وادي ليـة يقع في منتصف الطريق بين هذه النقاط، فيمكن الافتراض أن هذا النوع يوجد حينما كانت الظروف مناسبة له، على امتداد الطريق إلى أسفل إلى منطقة الساحل.

وقع محمد بن طراد فريسة للحمى أثناء الليل، غير أن هذا لا يمكن أن يعزى إلى ظهـور زواره الحاليين مـن البعـوض، والتي لا بد أن تكون قـد خلفت بعض سمومهـا داخلي كما سأروي في وقت لاحق. كانت الطيور مـتوافرة هنا وفي كل مكان وقد تضمنت حـقيبة العينـات طائر الدج الصخري، والحمامـة الصحراوية، والجشنة ودرسـة الصخور. كان هذا الأخـير متـوافراً كما لاحظت، غـير أنني لم أستطع صـيده، طائر صائد ذباب الجنة. لا تزال من حولنا بـكميات كبيـرة طيور أبومطرقة والعجلة والشـقراق الحبشي، كما اصطدنا طائر السـمنة داخل محاصيل قرية صغيرة بالقرب منا.

أعدت قـراءة بريدي الذي وصلني من الوطن أخيراً، ومـا استطعت الاطلاع عليه مـن الصحف المتراكـمة مـعه، وذلك لاستـحالة انشـغالي بدراسـة النجوم. صحوت من النوم لأجد منظراً طيباً للجبال وقد مـرت العاصفة فيما يبدو، وما أن أكملت اختبار رفـاقي فيما يخص تعريف القمم المختلفة حـتى تجمع السحاب مرة أخـرى وحجب الرؤيا. أرسل مـحـمد بن طراد لجلب رجلين مـن رجال قـبيلتـه مشهورين بأنهما يعرفان الكثير عن الجبال، غير أن المعلومات التي قدماها لي تشير إلى أن كل المعلومات الـتي كنت قد جمـعتهـا في السابق خطأ، إذا كان مـا قالوه صحيحاً. اتضح لي أن الأمر سيستغرق دراسة متأنية حذرة لتصنيف القمم من بين متاهة المعلومات المتضاربة، وقد سجلت في وقتها كما وردت لي، وكل ما أستطيع

الإدلاء به أنني غير مقتنع بنتائج أعمالي التي لم تجد طريقها بعد إلى أي خريطة منشورة[١]. سأسرد الآن الأسماء التي قيلت لي دون تعليق وهي: غولة، ومفتاح -نقطان فوق كتلة واحدة-، ومرّان -تل مزدوج القمة- وفوت، وبحري، وغمر، وقفرة، وشدع، ورازح، وناضر، وحماطة، وضويب. تمثل هذه القائمة قمماً مشاهدة بالفعل في هذا اليوم بالذت من هذا الموقع بالذات، غير أن الشك يظل يرفرف فوق التسمية الفعلية.

رافق بداية تحركنا من المعسكر على ظهور الحمير رزاز خفيف توقف سريعاً. كانت الشمس تجاهد لتخترق السحب وكان الجو لا يزال متجهماً. كان ارتفاعنا عند هشيرو حوالي ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وواصلنا سيرنا على مستوى الارتفاع نفسه، أولاً عبر أرض ذات شجيرات، ثم فوق سهل عارٍ مسطح به عدد من القرى الصغيرة تحيط بها حقولها ذات المتاريس. يقع عمود أبام هالي الحدودي (رقم ٦٧أ) وهو كومة حجارة بالقرب من جعوة أو مسطبة من حجر صغير كان يقف فوقه رجل المراقبة لتخويف القرود وطردها إلى خارج المحاصيل. كان من بين القرى الصغيرة، الكُنَيْدرُ ورضا إلى جانب جراحيات التي ورد ذكرها. وصلنا إلى هذا الموقع وقد كان اتجاه سفرنا هو الشمال الغربي من المعسكر، غير أننا الآن عدنا القهقرى على شريط يتجه ناحية الشمال الشرقي على الجانب الآخر، وهو بروز ضيق جداً للحدود لا أرى مبرراً له. لربما كان التفسير له يعزى إلى وجود عمود حدودي ثانٍ باسم أبام هالي (رقم ٦٨أ)، الذي وجدناه في القرية نفسها، التي تسكنها قبيلة العقارب (حرث) الذي يجب أن يكون هو الأول والعكس بالعكس، مع الخط الذي يستمر من الأخير في اتجاه شرق الشمال الشرقي إلى عمود هشيرو

(١) تم طبع خريطة على مستوى المليون العالمي حديثاً. ( المؤلف).

الثاني (رقم ٦٩أ)، غير أننا كنا في هذا الموقع وتقريباً عند موقع انطلاقة رحلتنا، وأميل للاعتقاد أن هنالك خلطاً نتج عن إقامة عدد لا ضرورة له من الأعمدة الحدودية فوق أرض ضئيلة. أستطيع فقط تسجيل الأعمدة الحدودية كما وجدتها وذلك لأنه ليس لدي أمر قضائي بتصحيح الحدود، غير أن الشكل المرافق ربما يوضح الوضع أكثر. ويبدو أن الترتيب الصحيح للأعمدة هو حنبيرة، وهشيرو(١)، وهشيرو (٢)، وأبام هالي (٢)، أبام هالي (١) ثم راضحة. ويوضح الخط المتقطع خط سيرنا الفعلي، وأيضاً يوضح المسافة المتضمنة بأنها تابعة للسعودية ولليمن في آن واحد، وهذا مستحيل.

obeikan.com

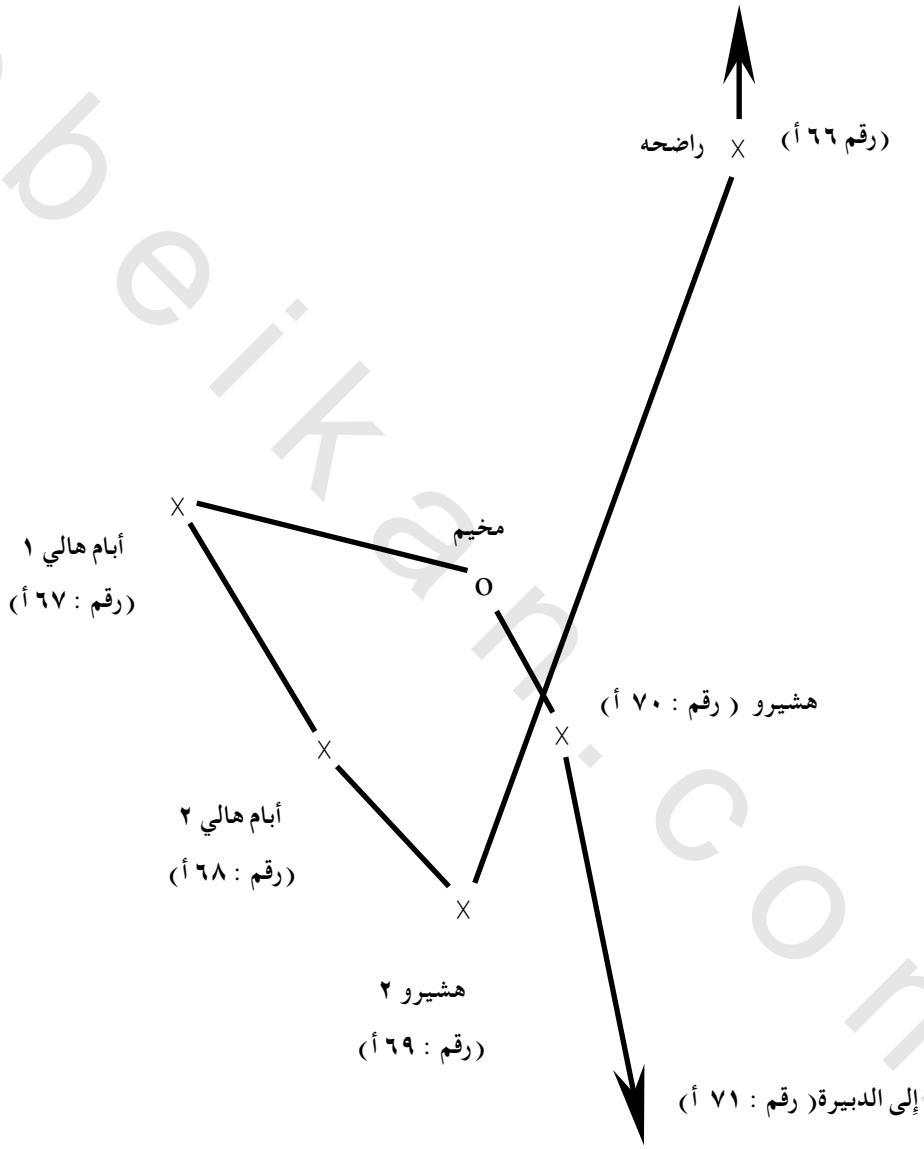
(رقم ٦٦ أ) راضحه
مخيم
أبام هالي ١
(رقم : ٦٧ أ)
هشيرو ( رقم : ٧٠ أ)
أبام هالي ٢
(رقم : ٦٨ أ)
هشيرو ٢
(رقم : ٦٩ أ)
إلى الدبيرة( رقم : ٧١ أ)

obeikan.com

اتجهنا ناحيـة الشمال الشرقي من هذا العـمود الحدودي، تاركين الخلط الذي حدث وشأنه، إلى قرية أم راضـحة الصغيرة التي تورطنا سريعـاً في حقولها ذات المتاريس. تجـمع السكان عند العـمود الحدودي من حـولنا، يزحفـون على باطن ركبهم كحشد من القرود، دون أن يضيـفوا شيئاً لمشكلة الحدود. كان من الواضح أن معسكرنا الليلة الماضية كان فوق أرض يمنية، وبالوضوح نفسه أن حقول راضحة امـتـدت عـبـر الحدود في الاتجـاهين، بـالرغم من أن القـرية تقع داخل الحـدود السعودية. يأخذ العمود الحدودي هنا الرقم ٦٦أ من التسلسل، وظللنا داخل مزارع راضحة حتى العـمود الحدودي التالي واسمه موقـد (رقم ٦٥أ). تعني كلمة موقد في هذه البلاد «فرن» مهيأ بقواعد يقف عليـها والذي فيما يبدو تحرق فيه كل أنواع الغطاء النبـاتي المحلي لأجل استـخلاص الراتنج الذي يوظـف كمرهم فـي علاج تقرحات الحيوانات والبشر.

مررنا إلى الشمال بقـريتين صغيرتين تابعتين قبيلة جراحـيات لنجد في الأبعد منهما عموداً حدودياً يسمى أسفل جراحيات (رقم ٦٤أ) ولا شيء غيره ذا أهمية. وصلنا بعـد ذلك إلى الجـانب الأيسر لوادي صـامطة الذي ورد ذكـره رافداً لليـة ومحـاط من الجانب الآخـر بسلسلة الرميح الطويلة. يقف عـمود مـسبح أم رنف الحدودي (رقم ٦٣أ) فوق ربوة من الصخور والتي من عندها استطعنا أن نرى قرية منزله -تابعة لقبيلة عقارب- على بعد ميلين من الحدود، وكذلك وأقرب إلينا كثيراً قرية سيلان التابعة لقبيلة حزاحز السعودية. لم نعبر وادي صامطة الذي يقع بكامله في هذا المكان داخل أرض سعودية، إلاَّ أننا تتبـعنا جانبه الأيسر لنصل إلى جدول رافد يسـمى أم لحى -ربما ضحى- والذي تجري فـوقه الحدود إلى العمـود التالي. ينتشـر في هذا المجرى، قبل اتصاله مع صـامطة، بالعديد من البرك الكبـيرة التي

تترابط بواسطة غيل جـاري وينحدر الشاطئان بيسر في بسـاط من العشب الأخضر وهو منظر أخاذ في المنظر العام والذي أصبح كئيـباً بعد مغادرتنا الغابة من خلفنا. يقف عمـود جضه محـسن (رقم ٦٢أ) فوق الجانب الأيمن للمـجرى داخل الزاوية التي يكونها مـوقع تدفق مسيل صغـير ينحدر ماراً بقـرية سيلان التي تمتـد حقول دخنها إلى أسفل إلى لحي.

يستمر هذا المجرى مـؤدياً وظيفة الحدود ماراً بعمود مفـجر سار جغله الحدودي (رقم ٦١أ)، فوق ربوة على جانبه الأيسر ثم عـبرنا بعد قليل إلى الجانب الأيمن، ثم خرجنا وقد أزعجت حركتنا سرباً كبيراً من الدجاج الحبشي. وجدنا أنفسنا مرة أخرى في أرض التلال كثيفة الأشجار ناحية الشرق من تل دخان البارز وليست ببعيدة عنه، واستطالت المساحة تدريجياً من شريط وادي لحي، الذي نستطيع رؤيته من هذا الموقع وهو ينساب ناحية التـلال اليمنية المرتفعة ناحية الشـرق والجنوب الشرقي من موقعنا. وجدنا عمود أبام مضى (رقم ٦٠أ) فوق ربوة منخفضة في هذه الأرض وبجوار قرية معيان الكبيـرة على مسافة نصف ميل إلى الشرق وقد انتشرت حـقول دخنها المترسة إلى أسفل، ناحـيتا، فوق منخفض ضـحل، يمتد خط الحدود على الجانـب الشمالي منه. تتبـعنا هذا شرقاً ووجدنا عند النهـاية العليا للوادي بعض مزارع مـعيان، وهي على الجانب الخطأ للخط، إلاَّ أن مثل هذا أصبح الآن ظاهرة مـألوفة. ويحدد موقع القرية، وليس حقـولها، غاية ضرائبهـا. تكاثر الدجاج الحبشي بصورة كـبيرة، لعله يقتات على ما يفيده في حقول الذرة.

كنا نرتفع تدريجياً حـتى وصلنا إلى عمود خطوة النصرة الحدودي فـوق مضيق يفـصل بين مـسيل روضـة المعـيان المزروع، والذي كنـا نسلكه، عند مـسيل غـوية الزروع، ويمتد ناحيـة الشمال في أرض سعودية في اتجـاه وادي خلب الذي نستطيع

رؤيته الآن وهو ليس بالبعيد أثناء انسيابه غرباً مع صورة خلفية لكل من شدع والسفوح كثيفة الأشجار الملحمة. يقف تلاً واضحاً وأستطيع تمييز حصونه العديدة المنتشرة -مبان تشبه القلاع- بين سفوحه المترسة التي يزرع فيها الدخن والذرة والقمح والبن والقات والموز وأشياء أخرى عديدة مزروعة. كانت شدع ومواقع أخرى محصنة تابعة للسلسلة الرئيسة، أيضاً مترسة ومأهولة. يقف عمود نصرة الحدودي (رقم ٥٩أ) عند ارتفاع ١٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وتمتد الحدود ناحية الجنوب الشرقي على امتداد السلسلة التي تنهي مسيل معيّان وبذلك تنغلق في نتوء بارز في أرض يمنية. أمكننا رؤية الخوبة من فوق قمة هذه السلسلة، ناحية الشمال، غير أن طريقنا لا يزال يتجه شرقاً ناحية خفينة، كما تُشاهَد الآن، استقرت الجمال التي تحمل أمتعتنا في المعسكر. كانت قرية غوية مرئية لنا على مسافة ميل واحد، عند ملتقى مسيلها مع مسيل آخر يسمى مجلة أو مردة، وهي تقع في خط واحد تقريباً مع الخوبة وفي سهل مزروع واسع يمتد إلى الخلف حتى مجرى حلب. لقد كان -حقيقة- هو كل جزء من الدلتا التي يتفرع داخلها حلب عند منفذه من بطن مجران الضيق في الجبال. يقف عمود أبام ضحي الحدودي (رقم ٥٨أ) فوق عرن منخفض للسلسلة نفسها على سفح يواجه حقول مردح وعلى مسافة ٢٠٠ ياردة من قرية ضحي الصغيرة ناحية الشمال الشرقي.

كنا لا نزال عند الارتفاع نفسه كما في مضيق نصرة، واستمتعنا بمناظر خلابة للريف امتدت إلى الخلف حتى عنم في الجنوب، بالرغم من أن السحب قد تجمعت مرة أخرى فوق السلسلة الرئيسة ناحية الشرق وناحية الشمال. استطعنا كذلك رؤية المئات من المباني منتشرة فوق سفوح مرَّان وغولة المترسة إلى جانب سمات جبلية أخرى. بدت حقول ضحي مزدهرة بصفة خاصة، وتضمنت

محاصيلهم نسبة كبيرة من الذرة الشامي، وقد ظهرت أكوازه ولم تنضج بعد. يسمونها هنا «دخن» ويلحقون بهذا اللفظ كلمة «هندي» أو «رومي» أو «حبشي» لتأكيد أصله الأجنبي. دخل ونحن في هذا الموقع وقت صلاة الظهر، ولاحظت أن محمد بن طراد قد أدى صلاته – وتؤدى الصلوات في هذه البلاد فردية وليست في جماعة كما في نجد – ثم لمس الأرض بكلتا يديه، ثم قبَّل يديه وسحبهما فوق صدره، وبدأ بعد ذلك في تنظيف أنفه.

هبطنا قليلاً لنصل إلى عمود سر أم حيجام الحدودي (رقم ٥٧أ) داخل مساحة واسعة مزروعة، معظمها حقول ذرة صفراء في تجويف في التلال قليل الأشجار. بدأ رفاقي في جمع أكواز الذرة الشامية غير الناضجة ليأكلونها نيئة في الموقع، محتفظين ببعضها ليتم إنضاجها على نار المعسكر. تنتمي هذه الحقول، على الأقل جزئياً، لقرية موقد الصغيرة داخل أراض سعودية. ويسكنها الحرث التابعون لأحد أقسام غوية. عدنا مرة أخرى لخط وادي لحي، الذي كنا قد غادرناه منذ فترة ووجدناه قد تغير إلى حوض عميق كثيف الأشجار، يقع بين شاطئين يرتفعان إلى ٥٠ قدماً. تعبر الحدود هذا الوادي، وزحفنا إليه وخرجنا منه إلى حيث عمود سر أم مجدوع الحدودي (رقم ٥٦أ) وهو يقف على الجانب الأيسر على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من خفينة، حيث وصلنا إليها قليلاً بعد الغروب، لنجد رسولاً يرحب بنا حاملاً معه الهدايا من أمير الخوبة بالإنابة. كانت هدايا رحبنا بها كثيراً. وهذه الهدايا هي: حزمتان كبيرتان من الموز المحلي اللذيذ، و٤ حبات باباي، الذي يزرع في هذه البلاد التلية، وعلبتان من معجون الطماطم وعلبة لشرائح الأناناس. لقد احتفلنا بالوليمة هذه تلك الليلة، وكانت الفواكه الطازجة إضافة ممتعة لهذه المنطقة السفحية التي وصلنا الآن إلى عتبتها.

تقع قرية خفينة -وهي عبارة عن بناء واحد وعدد قليل من العشش المبنية من الأعواد- إلى جانب معظم أراضيها المزروعة داخل أراض يمنية حوالي ٤٠٠ أو ٥٠٠ ياردة إلى الجنوب الغربي من العمود الحدودي (رقم ٥٦ ب). كان معسكرنا قد نصب إلى الغرب منه داخل أرض سعودية. يقع مجرى وادي لحي على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى الخلف ناحية الشمال الغربي من معسكرنا، وعليه يكون داخل أرض سعودية، بينما تمتد سلسلة منخفضة من ربوة دواد ثم تنحني بلطف لتكون شبه دائرة من حول القرية ومزارعها، التي يوجد الماء فيها في مسيل ضحل يمتد حوالي ربع مساحتها الزراعية داخل الأراضي السعودية. غير أن الترتيبات العادية كانت متبعة وهي أن تعالج أمورها وكأنها داخل أراض يمنية. كانت الليلة لطيفة وصافية ومضيئة بالقمر، ودافئة، وبعد القيام بدراساتي الفلكية، جلست فترة أطالع الصحف ورسائل الوطن، وقد جلبت آخر ما وصلني منها وهو ما لا يقل عن ١٨ خطاباً أسبوعياً من والدتي وكميات مماثلة من أفراد أسرتي الآخرين وبعدها استلقيت لأنام.

كان محمد بن طراد مرة أخرى طريح الفراش بالحمى، ولم يخرج لتناول العشاء، غير أنني بدأت أمله ورجال قبيلته، الذين -وبعد بداية طيبة معهم- انحط أمرهم تدريجياً تحت ضغط الترحال المتواصل وأسئلتي عن المواقع الكثيرة. كانت المشكلة الحقيقية معهم أنهم لا يعرفون الكثير عن محيطهم، ولمثل هذا المرض لا يوجد علاج. كان حديثهم وكلامهم، إلى جانب ذلك، غير منطلق مقارنة مع كلام بعض جيرانهم. كانت الكلمات عندهم ممضوغة وتطلق بلا وضوح، وكان عليّ أن أبذل جهداً كبيراً لأفهم أسماء الأماكن كما ينطقونها. اشتركوا مع جيرانهم في الكراهية الفطرية لأي صورة من صور الإجهاد أو الشدة، وكان من الضرورة

أن يدفعوا دفعاً. أعتقد، مع ذلك، أن حياتهم كلها يجب أن تدور في فلك الفقر المدقع والكدح، ومثل هذه لا تقع على معظم الناس في أراضي أكثر ازدهاراً. تَكوَّن لديَّ الانطباع بأنهم قوم يذبلون تحت الشدة وفقدان الأمل في الوجود فوق أرض تجردت منذ أزمان بعيدة من أسباب الحياة. غير أن هذه الأرض نفسها –أرض تهامة عسير– كانت أفضل من ذلك كثيراً في الماضي، وربما تكون مرة أخرى، أفضل مما هي عليه الآن. يبقى –بالتأكيد– على الحكومتين اللتين تخترق حدودهما المشتركة هذه السهول والتلال، أن تفعلا شيئاً لمصلحة رعاياهم سيئي الحظ.

كشف لنا صباح اليوم التالي عن صورة واضحة لمجموعة من قمم للسلسلة الرئيسة حول كل من رازح، التي تقع ناحية الشمال من موقعنا، وناصر وحرم. كانت قممهما وسفوحهما العليا مبقعة بالمباني البرجية الخاصة بالمرتفعات، غير أن أجزاءها السفلى غاصت إلى أسفل تجاه سهل الجرف الرائع. تسمى حرماً أيضاً القم من اسم القبيلة التي تكوّن سكانها، والذين انتشرت مساكنهم فوق قممها الثلاث المنفصلة. واصلنا سيرنا على الأقدام عبر حقول خفينة إلى سلسلة غريب حرم المنخفضة على الجانب الأبعد. تسلقنا هذه إلى حيث عمودها الحدودي (رقم ٥٥أ) فوق مضيق منخفض، ينحدر من مسيل صغير منساباً إلى أسفل ناحية الشرق إلى داخل وادي لية، الذي ينحدر مجراه الأعلى في هذه الأرض المرتفعة من مرَّان عبر غابة كثيفة الشجر.

نحن الآن إلى الشرق من خفينة ونرتفع فوقها بمسافة ١٠٠ قدم –حوالي ١٣٠٠ قدم فوق سطح البحر– بينما يقع مجرى لية عند أقرب أجزائه على بعد الميل الواحد. واصلنا سيرنا على مستوى الارتفاع نفسه إلى عمود مشبح أم دغوي الحدودي على الجانب البعيد، حيث توجد حقول أم جدعة بالقرب من قرية

سعودية بالاسم نفسه على بعد ميلين ناحية الشمال، يعني هذا استدارة حادة في ذلك الاتجاه للحدود التي تخترق هذه الحقول، التي تمتد إلى الجانب الأيسر لحلب. يستمر خط الحدود إلى أسفل، ثم أعلى، مسيل دغوي الذي تغلبت عليه أجمة عظيمة من شجيرات المظ، وعاقت تقدمنا بعض الشيء. وصلنا فيما بعد إلى عمود سر أم ودعاني الحدودي (رقم ٥٣أ) على الجانب الأيسر للمسيل ومن ثم إلى عمود آخر بالاسم نفسه (رقم ٥٢أ) على الجانب البعيد لحوض ودعاني الضحل حيث أزعج وجودنا سرباً ضخماً من الدجاج الحبشي. كان هذا العمود الحدودي الأخير مجرد كومة من قطع كوارتزية فوق صخرة من المادة نفسها في مقابل المظهر الأفضل للأعمدة القليلة الأخيرة التي واجهتنا.

عبرنا أرض التل فيما يلي هذا الموقع عند قرية مغبس السعودية على يسارنا إلى قرية مشحف اليمنية على بعد ٥٠٠ ياردة على يميننا، ومن ثم إلى ملاحت وهي قرية معتبرة على الجانب اليمني. وصلنا بعد متابعة منحدر سهل إلى عمود مشبح الموقد الحدودي (رقم ٥١أ) والذي نظرنا منه على ملاحت نفسها، والتي يسكنها الحرث، قسم جو، وهم أنفسهم الذين يسكنون في مشاف. التحق بنا هنا شيخ شاب ودود يسكن مشاف، ومعه الماء لإنعاشنا ولاحظت أن أحد العبيد يحمل وشماً غريباً وعلامات للكي على بطنه على الجانبين من السرة إلى مفاصل أضلاعه السفلى. كانت شقوق حمراء فوق جلده الأسود. تعد كل هذه البلاد المتدحرجة الغابية أرض مراعٍ جيدة للمواشي، ويقطعها العديد من دروب البقر غير أن الغطاء النباتي كان كثيفاً بالدرجة التي حجبت عنا رؤية الحيوانات نفسها.

أذكر تماماً، ما قالته لي امرأة قد تحررت من الرق، في مكة منذ وقت مضى، أن موطنها هو قرية ملاحت حيث كانت تعيش في راحة مناسبة، مع والدها وأشقائها

حتى زار طاعون الحرب ذات يوم بلادهم، وتم قتل كل رجال القرية وسلبت مواشيهم. كانت هي وشقيقتها طفلتين صغيرتين حينذاك وقد أرسلتهما والدتهما للرعي بماشية الجيران، حتى هجمت عليهما ذات يوم عصابة من خاطفي العبيد وهما غافلتان وأخذوهما للبيع في أسواق اليمن، وبمرور الوقت تم إرسالهما إلى مكة وأدخلتا القصر الملكي وكوفئتا على خدماتهما بأن أعتقتا وتم زواجهما إلى خدم الملك، وقد انتهت ذكرى الأيام القديمة التعيسة للمأساة الأسرية والعبودية بحلول سنوات أسعد. دفعتني قصتهما أن أتمنى دائماً زيارة ملاحت، وها هي الآن أمامي، وأنا أنظر من الغابة نفسها التي شهدت بالتأكيد اغتصاب فتيات جارو، ربما قبل ١٥ أو ٢٠ سنة، أستطيع تصور المنظر في حيوية كافية، بعد أن رأيت حديثاً الفتاتين الصغيرتين في مثل هذه الأجواء المحيطة عند عمود قم بشير الحدودي.

يطلقون على هذه الغابة الكثيفة الصعبة الاختراق المكونة من أشجار المظ والغلفا اسم الوعش، وهي كلمة تدل على صوت يفيد بالصعوبة في هذا الموقع. كانت هنالك محاولات هنا وهناك لإزالة بعض أشجار الغابة لأجل الزراعة، غير أنني لم أر أي علامة لمحصول فعلي، على الرغم من أن الأفران ذات القواعد، التي كانت تحرق فيها الشجيرات لأجل الراتنج كانت تقابلنا من حين لآخر. كان هنالك واحد من هذه الأفران، أكثر بروزاً والذي اكتسب هذا العمود الحدودي اسمه منه، على السلسلة المقابلة فيما يلي مسيل بروت المتقاطع الذي يجد طريقه إلى أسفل إلى وادي ليه. وصلنا في هذه السلسلة إلى عمود حدودي آخر اسمه مشبح الخريق (رقم ١٥٠) على بعد ٢٠٠ ياردة إلى جنوب غرب الفرن الذي كان في أعلى الموقع. تقع أمامنا الآن قريتا جدعة ومغبس التابعتان للحزاحز عند قدم سفح سهل يقود إلى الحقول. اتجهنا قليلاً ناحية الشمال الغربي في اتجاههما تاركين

ملاحت على مسافة تزيد عن الميل الواحد ناحية الشمال الشرقي. ملأ صياح القرود الجو، غير أننا نادراً ما كنا نلمحها وذلك لأنها قد حصرت زياراتها إلى المحاصيل التي في طور النضج، أثناء الليل.

عبرنا حوضاً ضحلاً يسمى حمررة أسفل السفح لنصل إلى عمود حمررة الحدودي (رقم ٤٩أ) وعلى بعد مسافة ٥٠ ياردة كان هناك عمود جدعة الحدودي (رقم ٤٨أ) على الطريق الجنوبي لأرض زراعية واسعة، اخترقها الشريط الحدودي دون أي علامة خارجية تميز حقول ملاحت إلى اليمين، وحقول جدعة إلى اليسار. يقف عمود أم فياحة الحدودي (رقم ٤٧أ) في وسط الحقول على مسافة ١٠٠ ياردة ناحية الشمال الغربي ثم يمتد الخط الحدودي مسافة ٣٠٠ ياردة ناحية الجنوب الغربي إلى علامة مغربي الحدودية (رقم ٤٦أ). ثم تمتد الحدود مسافة ١٠٠ ياردة تجاه الشمال الغربي، إلى حيث مجموعة من حجارة صغيرة مختفية تحت المحاصيل النامية ويعتقد أنها العمود الحدودي (رقم ٤٥أ) واسمه ضومان وهو موقع لقاء ثلاثي بين أراضي ملاحت على أحد الجانبين، وأراضي جدعة ومغبس على الجانب الآخر.

تقع جدعة في مواجهة الحدود بحوالي ٣٠٠ ياردة، ويقدر عمقها إلى الداخل بضعف هذه المسافة، ولا تزيد مساحتها عن ٤٠ أكراً. تمتد مزارع قرية مروي اليمنية، على الجانب الأيسر لحلب، إلى الحدود بالقرب من هذا الموقع، غير أن مساحتها لا تزيد عن ٣٠ أكراً، بينما مساحة ملاحت تصل إلى ٤٠٠ أكر. تعادل مساحة مغبس مساحة جدعة، بينما تكون مساحة بثول، التي تنفصل عن مغبس بسلسلة رفيعة منخفضة، بذات حجم مغبس. يبدو أن المساحة المزروعة في هذه المجموعة من القرى حوالي ٥٥٠ أكراً. سرنا ناحية الشمال الغربي من

ضومان، عبر المزارع حتى وصلنا إلى عمود أم لج الحدودي (رقم ٤٤أ) أيضًا ينطق (أم لي) ولق عند الطرف البعيد للحقول، التي استدرنا حول حافتها الخارجية ناحية الشمال الشرقي إلى قدم السلسلة التي ورد ذكرها. تسمى أم زعين تقود إلى أرض بثول عبر ممر ضيق، بينما يوجد عند نهايتها الشرقية عمود ظعين الحدودي (رقم ٤٣أ) الذي يفصل بين بثول ومروي بصورة ما. كان هذا العمود على مسافة مرمى حجر من الجانب الأيسر لوادي حلب نفسه الذي يعلّمه عمود محول الحدودي (رقم ٤٢أ) وقد حجبه الغطاء النباتي المزهر.

أقيم معسكرنا بالقرب من هذا العمود فوق مساحة مكشوفة على الجانب الأيسر لمجرى الوادي العريض المطعم بالصخور، والذي كان يجري منه جدول مهيب فوق بطن حصوي يحدث صوتاً أثناء انسيابه. أصبحنا قريبين جداً من الجبال الآن، وقد تحدد أمامنا المنظر الشمولي، غير أن قمم مران أكملت المشهد لوادي خلب الذي تحوطه الصخور، وينحدر من ناحية الشمال بالنسبة لها، من كتلة متوجة بقمتي كل من بحري وفت. يجري مسيل مض، مباشرة في مقابل معسكرنا، داخل الوادي عن طريق جانبه الأيمن من سلسلة حطمي العالية الكثيفة الأشجار، والتي منها ينحدر أيضاً صدع أبام سيالة، الذي يدخل إلى المجرى على مسافة ٣٠٠ ياردة فوق مض. تكون الجانب الأيمن للوادي من صخر ارتفاعه ٥٠ قدماً، بينما مال السهل المزروع على جانبنا، والذي تحفه الغابات، في لطف إلى أسفل إلى مستوى الماء. وقفت قرية بثول الصغيرة على الجانب الأيمن على مسافة الميل الواحد إلى أسفل، غير أن معظم أراضيها الزراعية كانت على الجانب الآخر، وكان الاتجاه العام للمجرى المشاهد هو من الشرق إلى الغرب، وتخترقه الحدود باتجاه الشمال الغربي حتى سلسلة حطمي.

احتفلت بوصولنا إلى هذا الموقع بأخذي حماماً طيباً في مياه الغيل، ثم استلقيت لأنال غفوة الظهيرة والتي تأخرت إلى الساعة ٤,٣٠ وحتى غروب الشمس. غطت السحب السماء وكان القمر -حين ظهوره- محاطاً بهالة تامة، غير أن كل السحب اختفت عند منتصف الليل واستطعت ملاحظة النجوم كالعادة. لم تمنعني حقيقة أن التوقيت الصحيح بواسطة اللاسلكي قد توقف، وأنني كنت أعتمد على ساعات الكرونوميتر، التي لا يعتمد عليها، عند الاستمرار في هذا العمل، غير أنني لم أندهش لأكتشف في وقت لاحق أن الكثير من جهدي قد ضاع.

أضاف أمير الخوبة إلى كرمه السابق، زوجاً من الضأن للعشاء، غير أنه وعند منتصف الليل دبت حركة في المعسكر تفيد بوصول الشيخ إسماعيل، شيخ قسم كعوب التابع لقبيلة حرث، والذي سندخل منطقته غداً. كان وصوله علامة الانفجار لمحادثات مرتفعة الصوت تدور حول ثبوتية السمات المختلفة التي كان يحوطها الشك أثناء النهار، وبخاصة سلسلة عالية أمامنا ذات قمتين، والتي قد أسماها لي محمد بن أحمد بن طراد بأنها ملحمة. كنت متطلعاً لمعرفة الاسم الصحيح، بسبب أن الرأسين يقعان على جانبين مختلفين للحدود، وأنه يوجد عمود حدودي في السرج الذي يصل بينهما، وقد راهنت محمداً بجنيه ذهبي أن هذا الاسم لا ينطبق عليهما معاً. تكمن هنا الإثارة. كانت الطلقة التي أرسلها الزائر الجديد أن الرأس اليمنى يسمى الملحمة العليا -ربما أم لحمة- والثاني الملحمة الواطية وحقيقة هي الملحمة العليا والملحمة السفلى بالتوالي. كان محمد مسروراً بالطبع لأن معلوماته صادقة، غير أنني أعتقد أنه كان مسروراً بالمستوى نفسه عندما افترقنا في الصباح التالي، حينما أضفت مبلغ ٢٠ ريالاً للمكافأة له ولأتباعه لما قدموه من خدمات.

تداخلت محادثاتهم مع أزيز. البعوض أثناء محاولتي النوم، غير أن للطبيعة مسارها أحياناً، غير أنني اضطررت إلى تغطية رأسي بالبطانية اتقاءً للحشرات الملحاحة الصغيرة. كان لدينا بعض البعوض في خفينة غير أنه لم تكن هذه الحشرات هناك، ولا حتى هنا بشراسة بعوض وادي لية. كانت بقية الحشرات نادرة وذلك لأنها خلال هذه الليالي تكون في التلال وأنا في حيرة تماماً من أمري لتفسير هذه الظاهرة. لا نزال في يناير، وهذه حقيقة، غير أنه في خط العرض هذا فإن الطقس كان دافئاً أكثر من أي فصل صيف في انجلترا، وكانت الطيور معششة. لم تخذلني الطيور –بحق– أثناء النهار وقد تضمنت حقيبتي المتحفية طائر صائد ذباب الجنة، وطائر الوقواق التهامي، والحمامة الحبشية وهو آخر طائر شوهد في أسراب منتظمة حول المزارع في هذه القرى. لاحظت كذلك سرب قطاة ونحن نقترب من وادي حلب.

لم يكن هنالك ما يدعو لبقائنا في حلب بعد أن تناولنا الإفطار وقمت بمسح البلاد من حولنا كعادتي، ولذا فقد ضربنا فوق الطريق عبر المجرى وتسلقنا عرن مض إلى حيث العمود الحدودي (رقم ٤١أ) الذي وصلناه خلال ست دقائق ويقع على ارتفاع ٥٠ قدماً فوق الوادي وحوالي ١١٥٠ قدماً فوق سطح البحر. التقطنا أفضل مشهد من هذا الموقع لقرية ملاحت، التي تقع في قسمين إلى الخلف من مجرى حلب. كان الجزء الرئيس للقرية مميزاً بمقر إقامة الشيخ يحيى أم عمر المهيب المطلي باللون الأبيض، والشيخ يحيى هو رئيس قبيلة جرو حرث. توجد في القرية أيضاً منازل مبنية أخرى، غير أن معظم المساكن كانت عششاً من الأعواد، وهي التي تكون أيضاً القسم الآخر للقرية. لاحظت خلال وجودنا في المعسكر أن بعض آل حرث يحملون إلى جانب المعطف الصغير الأسود القصير الأكمام وخرقة

القماش فوق العورة عدداً من الخرق مختلفة الأطوال، تتباين حسب ظروفهم الاقتصادية، إما ملفوفة حول خصورهم أو ملفوفة حول قبعاتهم الضيقة أو رؤوسهم العارية كعمامة منفردة أو مزدوجة. وإذا ما أحسوا بالبرد فإنهم ينزعون أحد هذه الأقمشة ويلفونها حول أكتافهم ويحدث هذا في الصباح الباكر وفي المساء المتأخر الذي يكون عادة بارداً، وحين يجلسون القرفصاء فإن واحداً أو أكثر من هذه الأقمشة يوظف كملاءة أو بطانية، مغطياً المرء كله من رأسه إلى أخمص قدميه، ضد البرد وضد البعوض. كان فراشي أكثر دفئاً من فراشهم غير أنهم لم يستوعبوا إطلاقاً كيف أنام ووجهي مكشوف تماماً.

يقع جرف حطمي البارز ناحية الشمال الغربي من موقعنا مع سلسلة تصله مع المضيق، أمامنا تماماً على خط ينطلق من معسكرنا ومنه تجري سلسلة متعارضة إلى الخارج لتفصل مسيل مض عن مسيل سيالة. ينحدر مسيل مض من المضيق، وعلى الرغم من أن اتجاه العمود الحدودي التالي هو ناحية الشمال الشرقي، تجاه السلسلة المتعارضة، إلاَّ أننا ظللنا نسير على الأرض المرتفعة لتحاشي الهبوط إلى أسفل المسيل ثم الصعود علية مرة أخرى. وصلنا السلسلة المتعارضة، بهذا الأسلوب، على يمين المضيق عند ارتفاع ١٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وتتبعنا سنامه إلى أقصى ارتفاعه -١٧٠٠ قدم فوق سطح البحر-، وبذلك نكون قد استدرنا حول جرف سيالة إلى جانب سيطرتنا على منظر ممتاز. كان مجال الرؤيا جيداً برغم الضباب الخفيف، وقد قضيت نصف الساعة هنا وأنا استمتع بهذا المنظر البانورامي البديع بينما واصلت القرود صياحها الدائم من حولنا داخل السفوح الكثيفة الأشجار. لمحت الخوبة، وأنا أنظر ناحية الغرب، مباشرة فوق المضيق، وهي واضحة فوق السهل العظيم وعلى الجانب الأيمن لحلب، تسندها من الخلف

على مسافة مجموعة من الربوات المرتفعة تشتمل على تحنان، ودك، وعاصم، وغراب، وغيرها. يقع جرف حطمي إلى ناحية الجنوب الغربي في الخط نفسه مع حجفان البعيدة، بينما كان معسكرنا في وادي حلب ناحية الجنوب. وقف كل من مفتاح وغولة في وتر من ناحية الشرق إلى الشمال الشرقي، وهما قمتا مران إلى جانب فوت وبحري وغمر. شمخت قمة رازح من جهة الشمال كاشفة عن مبانيها البرجية العالية، ويقع ناضر بقربها ناحية الشمال، بينما وقفت كل من حماطة وشدع وتوجد في الأخير هذا قلعة الإدريسي عند القمة، وقرية خبتة بارزة على العرن الأسفل – ناحية الشمال الغربي قبل أن نستدير لنصل إلى أسفلهما عن طريق بلاد جبلية والتي أراحتنا ونحن نتابع الحدود- وهي طويلق وذي نمر ومن خلفهما الملحمتان.

هكذا كان المنظر العام حول الخوبة. ويعد وادي حلب -بالطبع- الوادي السائد في هذه المنطقة ويخرج إلى داخل السهل فوق أرض طينية شاسعة منتشرة من الحافة الجنوبية لمزارع جدع وشمالاً حتى الخوبة، حيث يدخل مجرى آخر مهم هو وادي ذهبان، من الجانب القريب من سلسلتي طويلق وذي نمر من منابعه في الجبال العالية في مجموعة رازح – حماطة. يوجد كذلك خط صرف مهم ثالث في وادي مجارف الذي ينبع من جوار كل من غمر وبحري ويتصل مع ذهبان عند موقع يبعد ثلاثة أميال من موقعنا في اتجاه الشمال الغربي. كانت هذه هي الشرايين الرئيسة الثلاثة للمنطقة، ولا بد أن تكون كمية المياه التي تحملها إبان السيول ضخمة. تتواصل حقول خوبة مع اتجاه أسفل الوادي مع تلك في قوة، التي تقع على الجانب الأيمن لحلب، والذي توجد في بطنه، قليلاً أسفل قوة ينابيع وغرة الحارة المشهورة، والتي سيرد عنها الكثير في وقت لاحق. كما توجد قيم على

الجانب الأيسر لذهبان، الذي ينحني مجراه الغربي بعنف ناحية الشمال الغربي، وتقع قيمة على جانبه الأيمن قليلاً أسفل مدخل مجارف، الذي على جانبه الأيسر والأيمن تقف قريتا برمية وقرقاعي بالتوالي. توجد بالطبع قرى أخرى سنذكرها حينما نصلها، غير أن مزارع منطقة الخوبة يبدو أنها تمتد معها مساحات غابية متقطعة إلى الخارج إلى محيط تلال دك – عاصم، التي يتركها وادي حلب، الذي اتصل به ذهبان، على مسافة طويلة أسفل قوة، ليتجه إلى الشمال في طريقه عبر السهل.

واصلنا متابعتنا لسنام السلسلة من هذه القمة، متجهين شرقاً، تسبقنا بالفعل عائلة مزعجة من القرود التي لمحنا بعضها بين الفينة والأخرى، حتى وصلنا إلى عمود مدبع الحدودي (رقم ٤٠أ) على ارتفاع القمة نفسها. كان هذا هو العمود المئة من الساحل، بمتوسط عشرة أعمدة نقوم بزيارتها في اليوم الواحد. كان اتجاه الخط المباشر بين عمود مض وهذا العمود هو ناحية الشمال الشرقي وقد سافرنا حول جانبي مثلث لنصل إلى هنا. علينا الآن أن نرجع إلى أسفل إلى الوادي شئنا ذلك أم أبيناه، ذلك لأن العمود الحدودي التالي يقع جهة الشمال، ويقع منخفض وادي شعبة الواسع المغطى بالغابات، وهو رافد ينساب من جهة الغرب لمجارف، بين النقطتين. وصلنا إلى أسفل قليلاً من القمة إلى صخرة مكشوفة والتي استغلت مستعمرات النحل شقوقها وتصدعاتها كبوابات للدخول إلى خلاياها بالداخل، كان النحل شديد النشاط قدوماً ورواحاً، ولم تكن هنالك مضايقات من جانبنا نحوها حينما توقفنا بجوار الصخرة ونفحص قلعتها الغريبة الحصينة. كان الأسلوب الوحيد للحصول على العسل هو استخدام أعواد طويلة نحيلة، واتضح لنا أن اللصوص من بني البشر قد ارتادوا هذا الموقع؛ بسبب وجود علامات تدل

على نيران الفحم عند المدخل لبعض هذه الخلايا لتخدير الحشرة بينما اللصوص منهمكون في العمل.

وصلنا بعد هذا التحول إلى قاع الوادي زاحفين عبر الغابة وقد انغرز في رجلي عود خشبي حاد، أسفل الكعب. انبثق الدم حين نزعتها، بكميات تدعو للقلق، غير أن رفاقي كانوا ذوي معرفة وأحضروا لي كمادة من ورق المظ الأخضر لإيقاف النزيف من الجرح. توقف النزيف تماماً بعد فترة وجيزة، واستطعت أن أواصل السير، بعد أن لففت قدمي بقوة بالمناديل من فوق الكمادة، فوق الطريق الصعب المنحدر على الجانب البعيد. أزعجت حركتنا سرباً من طيور الحجل في الطريق، غير أنني لم أتمكن من رؤيتها بوضوح لأتأكد من النوع وغالباً ما يكون هو (A.melanocepha) عند هذا الارتفاع المنخفض.

وصلت إلى عمود سوادي الحدودي (رقم ٣٩أ) مع بعض الألم والصعوبة، فوق مضيق يطل على وادي مجارف على الجانب الآخر، اتجاه أعلى الوادي، بالنسبة لمدخل وادي شعبة. ويبدو أن كل الصخور في بلاد التلال هذه من مادة الشست المايكا الذي ورد ذكره، مع تكشف يزيد أو يقل للكوارتز، الذي كان قليل الظهور منذ أن غادرنا حلب. يحرق الشست محلياً لعمل الكلس لبناء المنازل في الجوار وأيضاً، وبدون شك للآبار، غير أن هذه الحقيقة برزت في ذهني عن طريق الصدفة. لم أكن أفهم لماذا لما كنا نتبع الطريق، ترافقنا على فترات حجارة أو قطع من الصخر عليها الرسم التالي:

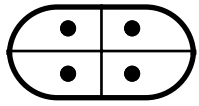

وهو معلم عليها وكأنه طلاء. صرف الشيخ إسماعيل تساؤلاتي بقوله إنَّ هذه العلامات ما هي إلاَّ مجرد شخبطة لبدو عاطلين، على الرغم من أنها بدت لي وكأنها -على الأقل- تشير إلى الطريق، كما كانت وظيفة أكوام الحجارة في الصحراء. لقد أدركت أثناء سيري أن عمود مظ الحدودي كان موقع لقاء ثلاثي، لكل من كعب وحزاحز على الجانب السعودي، وجارف التابع للمحلات والقرى المجاورة في اليمن. كان السوق الرئيس ملاحت في ضاهر، أيضاً قرية تابعة لجو، التي هي أيضاً مركز الرئاسة الإداري للعامل أو ضابط المحافظة اليمني. أمكننا رؤيتها بارزة واقفة على التل الهرمي ويتوجها حصن الحكومة ناحية الجنوب الشرقي إلى يسار مروي وملاحت. كان ارتفاع عمود سوادي الحدودي، ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وكان علينا أن نهبط بمقدار ٣٥٠ قدماً لنصل إلى البطن الجاف الحصوي لوادي مجارف - ويبلغ عرضه هنا ٥٠ ياردة - والذي يقف على جانبه الأيمن عمود وعشة الحدودي، وقد اكتسب اسمه هذا من غابة المظ التي تحيط به (رقم ٣٨أ). يتجه الوادي ناحية الغرب، ويكون الحدود وكان العمود التالي ويسمى أم عقيم (رقم ٣٧أ) أيضاً على الجانب الأيمن، وقد وصلناه خلال عشرين دقيقة سيراً على الأقدام وكان سيراً صعباً.

قابلنا ثلاثة رجال أثناء هبوطنا يتبعون جرو، كلهم مسلح بالبنادق والأحزمة العريضة. كانوا مسالمين وودودين غير أن منظر الأسلحة هذا يجعل المرء ينتبه لحقيقة أنه في كل البلاد التي عبرناها من مغادرتنا الساحل، فإن امتلاك ولبس مثل هذه التجهيزات ممنوع بأمر القانون في المملكة العربية السعودية. لا يوجد مثل هذا القانون على الجانب الآخر من الحدود، ومعظم رجال القبائل يمتلكون البنادق، غير أن المرة الوحيدة التي رأيتهم فيها كانت في معسكرنا في إبادية، حين قام بزيارتنا بعض الناس من قرية يمنية مجاورة.

أرسلت قافلة جمال العفش التي سلكت طريقاً سهلاً إلى موقع معسكر الليلة وفي إحساس صائب، شحنة من الماء إلينا عند عمود وعشة الحدودي، وقد انتهزت فرصة وصول الحمار الذي يحمل الماء، لأركب عليه من ذلك الموقع، لأن قدمي لا تزال تؤلمني. لاحظت الكثير من رسوم الكلس على الصخور وعلى فترات على جوانب الوادي، بعضها للحيوانات، وبعضها بقايا من رسم للعلم الإنجليزي.

وعلامات أخرى،وكلها من نوع رديء. إنه لمن السعادة أن يجد المرء نفسه راكباً بعد التسلق المرهق في الأيام الأخيرة، وليزداد الأمر حسناً، فقد هبت رياح شمالية باردة عبر طريقنا تحت سماء ملبدة بالسحب بما فيه الكفاية ، لتخفيف حرارة شمس الظهيرة.

تقف قرية عقيم الصغيرة على الجانب الأيسر مقابل كومة حجارة بسيطة تعلم الحدود، كما يوجد ثقب مائي ضحل في البطن الرملي للوادي الذي يفصل بين الاثنين، ومنه يقوم القرويون بسحب حاجتهم من الماء. كانت نسبة كبيرة من سكان هذه المستوطنات أفريقية الأصل (ربما عبيد أصلا) بينما كان البعض الآخر خليط من دم عربي وأفريقي بدرجات مختلفة. لا يخلو أحد منهم من أثر لذلك غير أن العديد منهم كان جميل المحيا. لقد رأيت فتاة صغيرة آية في الجمال، مكسوة بقماش مصبوغ بالأزرق -صبغة الأندقو - النيلة-، وهي توجه ثلاثة جمال بضربات عنيفة من سوط صغير. تجمع حشد كبير حولنا ونحن نتباطأ لفترة، غير أنهم جاؤوا لإلقاء نظرة هي بالنسبة لهم شيء جديد فعلوه. كانت مهنتهم المحبوبة -فيما يبدو- هي الجلوس، ولم أستطع مقاومة الإغراء بالتقاط صورة لمواطني عقيم وهم مشغولون بهذا النشاط المبهج. كانوا كلهم من قسم الحزاحز وكلهم رعايا

سعوديون. أمكننا رؤية قرى برمية وقرقاعي إلى جانب عقيم، على جانب المجرى إلى أسفل، بينما تقع على بعد الميل الواحد فيما يليهما عند موقع التقاء مجيرح مع ذهبان، قرية قيمة كم سيابة المزدوجة الكبيرة. توجد أيضاً قرية صغيرة تسمى رعشة بين عقيم وبرمية بينما تقع قريتا قمبورة ومتالعة على الجانب الأيمن لوادي ذهبان أعلى الملتقى. وتقع قرية حسامة مقابل متالعة على الجانب الأيسر داخل أرض يمنية، وهي قرية كبيرة.

تحركنا باتجاه ذهبان ناحية الشمال الغربي على امتداد حافة مزارع قرقعي، التي تندلق داخل أراض يمنية في أكثر من موقع.

وصلنا بعد ذلك إلى عمود قلة الخميسي (رقم ٣٦أ)، والذي منه أمكننا رؤية موقع التقاء المجريين قليلاً ناحية الجنوب الغربي، وكذلك قرية رحيم التابعة للحزاحز عند أسفل سفح حطمي ومباشرة أسفل المضيق الذي يقع ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا ويكوّن الجرف العظيم قليلاً ناحية اليمين من موقعنا. وصلنا إلى الجانب الأيسر لوادي ذهبان وعمود عجيبي الحدودي (رقم ٣٥أ) خلال خمس دقائق.

يحمل المجرى جدولاً جارياً بطيئاً متجهاً إلى أسفل إلى ما يلي مدخل مجيرح، ثم يعود للظهور بشكل متقطع في المرتفعات السفلى للوادي، الذي يتصل مع حلب في جوار سوق الأحد إلى الخارج تماماً فوق السهل. تتشابك حقول قيمة أسفل منا وحقول حسامة إلى أعلى بطريقة مربكة على امتداد هذا القطاع من الحدود، ولربما كان أهم شيء في مثل هذه الحالات أن القرويين على جانب الحدود يعرفون حقولهم الخاصة بهم بأسلوب أفضل مما يعرفون به شريط

الحدود الرسمي. تتبع الحدود خط المجرى إلى حيث موقع دخول شعيب مضس من الجانب الأيمن في مقابل حسامة، ثم يمتد على شكل مسيل إلى عمود مضس الحدودي (رقم ٣٤أ) على جانبه الأيمن، حيث سنقضي الليلة.

أخذت حاجتي من الراحة في المعسكر، ثم تجولت بين ضفاف ذهبان المغطاة بالأشجار وعلى امتداد جدوله، الذي كان بطنه يحمل مساحات من القصب المنخفض وعشب مروج غزير من حين لآخر. انتهى بحثي عن الطيور باكتشاف سرب ضخم من الطائر النساج أحمر المنقار، غير أنني مررت بمجموعة من فتيات القرية يقمن بتجهيز نبات من الصبار يسمى سلب، يشبه السيسال، لأجل عمل الحبال. يشق غمد أو ساق النبات ويترك في أكوام تحت غطاء من الأعواد ليجف ويتحلل. تغمس الألياف -بعد أن يتم ذلك- في الماء ثم تضرب بالحجارة لإنتاج الخيوط الرفيعة التي يحتاج إليها لصنع الحبال.

يتبع أهل حسامة ومحاري الذين يسكنون الزاوية التي يكونها مجرى مضس ومجرى ذهبان على الجانب اليمني، إلى بني ضهل حرث وتعيش مجموعة آل حسامة في قريتين منفصلتين صغيرتين يكونان القرية. تلقيت التحية عند وصولي إلى المعسكر من أمير الخوبة بالوكالة، الذي جاء من مقر رئاسته وبصحبته مجموعة من تابعيه الأوفياء ليرى ما يمكن عمله من أجل راحتنا. يعد الأمير غريباً عن هذه الأنحاء كما أعدّ أنا هنا، ذلك لأن علي بن حسين النجيب هو من أبناء قرية شعره بالقرب من الرياض، ولكن ضرورات الخدمة المدنية هي التي أرسلته إلى هذا المنفى في جنوب تهامة. فعل حسن كل ما في وسعه دون التظاهر أنه يحب العمل ولما كان لا يزال شاباً، فقد كانت له رؤيا متفائلة لخدمة متميزة لمليكه وبلاده. كان هو أول من شغل وظيفة بالإنابة، إلى جانب ذلك، كضابط منطقة. كان صاحب

المنصب الدائم غائباً في إجازته ولم تكن الخوبة أسوأ مكان في العالم. أحضر علي معه الشاة التي لا مفر منها لأجل العشاء وقـرعة كبيرة مملوءة بعسل الجبال اللذيذ، والكثير من الفاكـهة، ذكر لي أن الباباي والموز جلبتا من مـزارع شدع المسطبية في اليمن، غير أنه إذا كانت الفاكهة تأتي من الخارج، فإن الوافدين أقبلوا بأعداد كبيرة أيضاً إلى الخوبة للاستمـتاع بينابيعها الحارة. كان فخوراً جداً بهذه الخـاصية لمنطقته وكذلك بإمكانيـاتها الزراعية الواسعـة. بدأ رحلة عودته إلى الخوبة بعد مـشاركتنا العشـاء، وتبعـد حوالي ٣ أو ٤ أميـال عنا، وضوء القـمر ساطع، مـع وعد منه للِّحاق بنا في الصباح في جابري أو بالقرب منها، القرية التي يوجد بها أحد مراكز جمارك الحكومة.

لقد تعشيت جـيداً تلك الليلة، والتهمت حوالي ١٢ أصبع مـوز شدع، كما ارتحت لما تأكدت بأن المسـمار التـانجستي لمزواتي لا يمكن إصـلاحه. انتشـر حزام عظيم من السحب، عـندما كنت أعد نفـسي للنوم تحت ضوء القمـر الذي كاد أن يكتمل، عبـر السماء من جهـة الشمال الشرقي إلى الجنوب الغـربي. كانت درجة الحرارة الدنيا هـنا، كسابقتهـا في الليلة الماضية، في حلب أيضـاً ٥٧ درجة وكان رفاقي يرتعشـون من البرد في الصباح حينـما انضممت إليهم حـول نيران المعسكر لتناول فنجان قهوة.

التقطت مشهـداً عظيماً من هذا الموقع، قبل شروق الشمس حـينما كان الجو صافياً كالبلُّور، لسلسلة الجبال الحاجزة وبالذات كتلة رازح – ناضر، التي أصبحت الآن قريبة منا في وتر يمتـد من الشمال إلى الشمـال الشرقي. كانت رازح من بين الأقسـام الفردية في هذه المجمـوعة، هي الأكـثر تحدراً، ووعـورة وسكانها أقل. يرتفع ناضر –مثلـه مثل رازح وحرم– إلى ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البـحر، ويبدو

مهيباً جداً وعلى رأسه المسجد الأبيض البارز وقلاعه المحصنة منتشرة فوق سفوحه العريضة. يمتد ناحية اليمين صف نظامي للمنازل على امتداد الجرف الجبلي، الذي يصل جبل حماطة العظيم حتى السنام التالي لمثلث حرم.

لا يظهر لنا في كل هذه الحالات الجزء الأكبر من المستوطنات، لانتشارها إلى أسفل على السفوح السهلة الشرقية لهذه الجبال، غير أن بركان، أقصى قمة ناحية الشمال، كانت هي الأجمل والأغرب إذ بها أربع مجموعات من المباني كل منها يكون قرية معتبرة الحجم، تنتشر على فترات على امتداد السلسلة، التي تقع قمتها على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم أو يزيد، ويبدو أن شدع، التي يعلوه حصنه، يقع على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم ويتقدم على الحاجز الرئيس، كما كان حماطة، حوالي ٣٥٠٠ قدم وقد كانت سفوحه مغطاة بالفعل بالمباني. توجد في كل هذه الجبال، بالطبع زراعة مصطبية واسعة.

وجهتنا سلسلة طويلق وهي في الاتجاه العام لشدع (شمال غرب) وأكثر ناحية اليسار، على امتداد الحدود ونحن في سفرنا عبر غابة كثيفة من أشجار المظ والغلفا والأراك وغيرها إلى هضبة منخفضة هبطنا منها في بلاد مماثلة، إلى عمود حج أم وعرة الحدودي (رقم ٣٣أ) على الجانب الأيسر لوادي أم جرا الذي يمتد عبر طريقنا من الشرق إلى الغرب عند ارتفاع منخفض على يمين قدم سلسلة طويلق التي تتبعها حتى اندلق في ذهبان. يأخذ العمود اسماً آخر بديلاً هو عقار بلا سبب ظاهر. ويقف عند ارتفاع ١٠٠٠ قدم.

تمضي الحدود من هنا مباشرة فوق طويلق على اتجاه الشمال الغربي بعرن يقع على يمين القمة الفعلية، غير أنه، ولأسباب لا يصعب تحزرها، لا يوجد عمود

حدودي هنا لا على العرن ولا على أي موقع آخر على أي من السفحين للسلسلة. كان رفاقي يتمنون أن أطوف حول التل في مثل هذه الحالات، غير أنني خذلتهم في هذا، بإصراري على متابعة الحدود كما هي. انتشر أمامنا قطيع من الغزلان، بمجرد دخولنا الوادي، كانت تستريح أو ترعى فيه. لم نتحصل على إصابة صيد منها، على الرغم من حاجتي إلى تضمين عينة لحيوانات المرتفعات هذه، ولا بد أنها من نوع مختلف من غزال الأدمي الشائع في السهل. كان هنالك العديد من القرود والدجاج الحبشي في هذا الوادي الكثيف الأشجار وفي السفح فيما يليه، وأظن أنه في هذا الموقع، رأيت شجرة الإبراه المنتشرة، التي وردت من قبل. سلكنا الطريق الذي يقود إلى وادي دحوان الذي يمضي حتى رأس جرا، وعلى جانبه الآخر يقود مسيل مماثل إلى الوادي الرئيس، الذي يوجد فيه عدد من القرى اليمنية وأيضاً جابري حيث تعبر الحدود. ترجلنا عن الدواب في هذا الموقع لنسير على الأقدام إلى طويلق نفسه، مبتدئين من ارتفاع ١٢٥٠ قدماً، ووصلنا قمة العرن الأول واسمه مثن الصبط عند ارتفاع ١٩٠٠ قدم، بسهولة وخلال ٢٥ دقيقة. تمر الحدود القائمة مباشرة من حج أم وعرة من خلال هذا الموقع إلى مو النكرة عند ارتفاع ٢١٥٠ قدماً.

كان هذا الجزء يتطلب تسلقاً صعباً عبر بلاد كثيفة الأشجار وصعبة وقد استغرق وصولنا إليها ساعة كاملة، غير أن هذا يعزى أيضاً إلى حقيقة أنني شعرت فجأة بأنني على غير طبيعتي. لم تكن البقعة التي نهدف إليها بعيدة عنا، فقط على ارتفاع ٥٠ قدماً، كما تحققت من ذلك حينما عدت إلى الموقع في اليوم التالي، غير أنني لم أستطع فعل شيء فيما يلي هذه القمة الثانوية، وعليه فقد قررت أن أخلد إلى الراحة. أصابني القيء العنيف بعد دقائق قليلة وبدأت أحس بآلام الحمى

الزاحفة. أعـدّ لي رفاقي -وقد انزعجـوا لحالي- فراشاً من أوراق المـظ وغيره من النبـات، وعليه اسـتلقيت بلا غطاء -ذلك لأن كل عـفشنا قـد تم نقله عن طريق الوادي إلى حيـث مقرنا المتـفق عليه- وقـد تمكنت الحمى مني تمامـاً. كنت أتلوى وأرتعش وأتعرق من الساعة الحادية عشرة صبـاحاً وحتى العصر. خفت الحمى عند الساعة الخـامسة مسـاءً وأحسست بأنني في حالة جـيدة للحكم على الموضع، وبلا شك لم أكن قادراً على مسيرة أخرى.

عزوت القيئ إلى إسرافي في أكل الموز، أما عن الحمى فيـتعذر تفسيرها، غير أنني أدركت السبب في وقت لاحق، وهو أن بعوض وادي لية كـان قد أدى مهمته بكفاءة عـالية. كانـت هذه هي أولى جرعات الملاريا التي أصـابني بها البـعوض، وسيكون هنالك الكثـير من الأسابيع قبل أن أتناول الجـرعة الأخيرة، وقـد حبسني هذا على سرير المرض في مكة مدة عشرة أيام.

أرسل رفاقي، بعـد تأكدهم من حالتي المرضيـة السيئة، رسـولاً إلى رئاستنا لإطلاعـهم على الوضع، وعـاد الرسول عـند الظهر ومـعـه ثلاث علب من دواء الكوينين. ابتلعت الحبـوب وأكملت الشاي المتوافر في الـترمس وكان من الواضح أنني لا أستطيع التحـرك تجاه رفاقي المستريحين في المعـسكر في قرية جابري. ولما كان من المتوقع برودة الليل هنا، فقد كانت حـاجتي للغطاء ماسة. وعليه كان من الواضح أن ينتقل رفـاقي إلى موقعي، وبعـد عقد مـجلس حرب، أرسلنا رجلين يحملا أوامر صارمة، بأن الفريق -عن بكرة أبـيه- يجب عليه الحضور إلى موقعنا على جناح السرعة. بدؤوا سفـرهم تجاهنا حوالي الساعة الخامـسة مساءً، وأقنعت نفسي بمحـاولة النوم مقـتنعاً بعدم إمكانـية وصولهم قـبل منتصف الليل. سـمعنا صوت قافلة الحمير عند الساعة العاشرة مساءً وفرحنا، ولم يمض وقت طويل حتى

وجدت نفسي مستريحاً تحت بطاطيني الخاصة وفوق فراشي الخاص. كنت أحس بالتحسن وكنت واعياً بالليلة الناعمة اللطيفة في تلك الغابة المنعزلة التي يضئ سماءها قمر يسابق السحب القطنية. لا بد وأنني قد استغرقت في النوم وأني في هذه الحالة القنوعة، غير أنهم أيقظوني من النوم عند الساعة الواحدة صباحاً لتناول العشاء، كنت سعيداً بذلك الآن، وأخلصت لطبق لحم الضأن والأرز، فقد كنت جائعاً، وقد أحضروه إلى جوار فراشي حسب طلبي. ثم نمت مرة أخرى، لم يزعجني غير كلب أقبل من أحد معسكرات الرعاة ليجد ما يكفيه مما أبقيته من عشائي تحت تصرفه.

تحسنت كثيراً غير أنني أشعر بالضعف صباح اليوم التالي، والذي كانت سماؤه كثيفة السحب وعمه ضباب لم يستمر وقتاً طويلاً.

بدأنا بعد الإفطار سيرنا إلى أسفل أولاً من هذه القمة، ثم إلى أعلى حيث قمه قلة الجفرة وهو بروز لصخر عارٍ فوق الغابة الكثيفة التي تغطي سفوحه. اصطدت حجلاً أثناء الطريق من بين سرب صغير، كنا قد أزعجناه خلال عبورنا الغطاء النباتي الكثيف. يقع أعلى موقع في طويلق، ويسمى قلة الحصن على مسافة ٥٠٠ ياردة تجاه الغرب من موقعنا عند ارتفاع ٢٢٥٠ قدماً وكانت تمثله هذه اللحظة كتيبة من القرود يبدو أنها مهتمة بأمرنا كما نحن مهتمون بأمرها.

كان المنظر للمرة الثانية عظيماً. رأيت قرية المضايا الكبيرة، ناحية الشمال، وأنا أنظر إلى أسفل إلى وادي دحوان، ولربما كانت على بعد أربعة أميال في المرتفعات العليا للمجرى وعلى جانبه الأيسر. تقع على بعد الميل الواحد مع اتجاه الوادي مجموعة من القرى الصغيرة تسمى في مجموعها دحوان إلاَّ أنها أقل أهمية

من قرية المضايا، التي هي مركز السوق للمنطقة، وسوقها هو سوق الجمعة. كما تشتهر بين كل هذه المنطقة بأنها المقر التجاري لتجارة الموز.

امتدت قرية ذي نمر، إلى الشمال الشرقي من موقعنا، بلا نظام فوق جزء من السلسلة بالاسم نفسه، بينما تقع قرية غابية اليمنية ناحية الشمال الغربي داخل الزاوية التي يكونها وادي دحوان مع مسيله الرافد أم حصر الذي ينحدر من سلسلة ملحمة. يتصل مسيل حاسي القادم من طويلق، على الاتجاه نفسه، ومباشرة أسفل منا مع مسيل آخر يسمى شرنة يقبل من ناحية ذي نمر، في موقع يقف عنده عمود أم حاسي الحدودي (رقم ٣٢أ). يمتد المجرى المشترك لهذه المسايل إلى دحوان بالقرب أو عند جابري. استطعنا رؤية المسارات السفلى لذهبان وحلب، ومعهما قرية ضهر المزدوجة على الجانب الأيمن لذهبان، وكذلك قرية كرس قليلاً فيما يلي موقع التقائهما. استطعنا أيضاً رؤية الكثير إلى البعيد في اتجاه طحنان وبالطبع، معظم القمم المألوفة لسلسلة الجبل الرئيسة. تجري الحدود –من وجهة نظرنا– إلى أسفل حيث مسيل حاسي إلى العمود الحدودي الذي ورد ذكره، وإلى قرية أبام عرق القريبة منه، ثم يتبع خط الحدود المجرى إلى أسفل إلى عمود كسر الحدودي (رقم ٣١أ)، أو رزمة أم كسر اتجاه الجنوب الغربي.

استغرق بحثنا عن طريق يقود إلى حاسي حوالي خمسين دقيقة، وهو هبوط يقدر بـ ١٠٠٠ قدم. كان هنالك عدد من الثقوب المائية في بطنه الصخري المكسو بالرمل لتغذية القرية. امتطينا حميرنا الآن لنهبط إلى المجرى، وذلك لأن جانبيه كانا مغطيين بالأشجار التي يصعب اختراقها، كما كانت هنالك أشجار عالية ترفع رؤسها فوق الشجيرات الخضراء. تركنا الوادي عند علامة كسر الحدودية لنشق طريقنا عبر الحقول –وكان بعضها غير مزروع– وتتبع لقريتي جابري ومشف–

الأخيرة هذه على الجانب اليمني، لنصل إلى عمود مشوف الحدودي (رقم ٣٠أ) ومنه إلى كومة كأنما وضعها الأطفال من حجارة يقال إنها علامة حسكول الحدودية (رقم ٢٩أ)، وبعدها وصلنا إلى مجرى دحوان الذي يقع إلى أسفل في الالتقاء مع حاسي، ثم عبرناه لنرتفع إلى سلسلة ملحمة عن طريق مسيل حسكول. بدأت الحقول بين عمود كسر ومجرى دحوان، على الشريط الذي تم توضيحه، التابعة للقرى على جانب الحدود تختلط مع بعضها في فوضى لا سبيل للخلاص منها، غير أن هذا أصبح ظاهرة أكثر من مألوفة لنا فلا تزعجنا. وكنت أتوقع أن تكون جابري قرية متوسطة الحجم، إلاَّ أنني وجدتها قرية بائسة صغيرة من عشش على هيئة خلية النحل مبنية من الأعواد، تقع إلى خارج خط سيرنا، ولم أتوقف لتفقد مكتب ضرائبها.

يستحق مجرى دحوان أن يزار ويُرى، وقد أويت إلى صخرة كبيرة على جانبه الأيمن أستمتع بالمنظر إلى ما يشبه المروج لجدوله المنساب الصامت. ألقت أشجار الإبراه ظلالها هنا وهناك على مجموعات من الماشية أو الناس، كما كان انتشار المحاصيل النامية واسعاً، برغم اعتراض بعض الغابات له هنا وهناك.

كانت حياة الطيور زاخرة وقد انتشر صائد ذباب الجنة بصورة غير عادية، وبعضها يجرجر ذيله الطويل الأبيض وهو يخرج من بين الأجمات لصيد حشرة غافلة. أصبت ببندقيتي واحداً منها، ليرتاح الشيخ إسماعيل الذي حكى لي عن خرافة محلية تقول إنَّ مشاهدة هذا الطائر واسمه مخيال وهو يحلق فوق ثور أو بقرة، فإن الحيوان المعني لا بد أن ينكسر ظهره ويموت. لربما كان هذا القول يقصد به – مهما كان السبب – أن هذا الطائر لا يرفرف فوق الماشية.

يدور مجرى دحوان الذي ينحدر إلى هذا الموقع -حوالي ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر- من جهة الشمال الشرقي بزاوية حادة ناحية الجنوب. تقف الصخرة التي أجلس عليها عند الموقع الذي يدخل فيه مسيل حسكول، ويجري خط الحدود على هذا الميل إلى المضيق الذي يفصل بين قسمي سلسلة ملحمة. كانت هنالك مبان قليلة في أجزائه السفلى، كان أحدها مدمراً ويعتقد أنه كان ضريح أحد الأسياد أو الصوفيين، لا يزال يحمل زخرفة لعابري سبيل وشرائح من قماش أبيض لجلب الحظ. يقف عمود حسكول الحدودي (رقم ٢٨أ) عند قاع سفح ملحمة على مسافة ٨٠٠ ياردة من دحوان، غير أن المسيل يجري بانحدار شديد من هذا الموقع.

كنا نطل إلى أسفل بعد مسيرة أربعين دقيقة من بقايا مساطب زراعية قديمة، على وادي دحوان من علو ٥٠٠ قدم، ثم وصلنا بعد دقائق قليلة إلى قمة المسيل على ضلع من السلسلة يقود على المستوى نفسه إلى مضيق يقع بين ملحمة العليا وملحمة السفلى. كان هذا موقع مهم للحدود برغم أنه غير معلّم رسمياً. من هنا وعلى أحد الجانبين مسيل حصر وبه قرية رحبان (اليمن) على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى الشرق من موقعنا، وعلى جانبه الأيسر، بينما يستمر طريقنا على الجانب الآخر وفي اتجاه الشمال الغربي، إلى مسيل حميحمة، بينما تمتد مزارع رحبان حتى رأسه ومن حوله. أمكننا الآن رؤية وادي دحن، أمامنا، تسنده من الخلف سلسلة تسمى سودة.

استغرق وصولنا إلى عمود مو أم ضلمة الحدودي (رقم ٢٧أ) نصف ساعة، برغم أن الطريق إلى أسفل كان سهلاً، ويقع في وسط مسيل عند قدم سلسلة، وهو هبوط بحوالي ٥٠٠ قدم. ويمكن القول حقيقة وبدقة إننا وصلنا إلى موقع

العمود، الذي تم نصبه في مساحة لغابة كثيفة، وأنه لا يخدم غرضاً نافعاً. قام الجبليون وهم قاطنو المرتفعات اليمنية، بتحطيم العمود إلى قطع، ليس لهذا السبب، للدرجة التي لا يمكن جمعه منها مرة أخرى. كان هنالك الكثير من المتاعب والخلافات حول حدود القرى وحقوق الملكية في هذه الأرض من وادي دحن، وكان الحكم بواسطة القَسَم هو الذي يتبع. أثبت القرويون السعوديون دعواهم بإحضار الأشخاص الخمسين المحترمين ليؤدوا القَسَم بترتيب الحدود، وفي حالة حدوثه لنزاع حول تغلغل قرويي دريدبية فيما وراء خط الحدود، فإن الأمر قد تم رفعه لكل من أمير جازان والغازي عبدالله بن الوزير، حاكم تهامة اليمن، وكانت النتائج مريحة. كان السبب للإزعاج الغريب في حالتنا هذه في هذه الأرض هو تقلبات وادي دحن أثناء زمن السيول. لا يجلب الوادي عادة، ما يكفي من المياه لإقامة أراض زراعية، كما أن امتداد الرقعة الزراعية ممنوع. غير أن كل التربة جيدة وحينما يندفع الوادي بسرعة إلى أسفل، فإن عملية التمديد والتغلغل تبدأ، ومعها كل المتاعب التي تتبعها. يؤمل الآن -وقد تم الاتفاق على خط الحدود أخيراً- ألاَّ تقع مثل هذه المتاعب.

يمكن ترك عمود أم ضلمة غير الموجود أصلاً، مهما كان الأمر، للأجيال القادمة كتذكار لأزمان المتاعب، وأستطيع أن أرفع قصة الحدود من هذا الموقع وعبر وادي دحن إلى أقصى حد ممكن في أبحاثي. يمكن رؤية القليل من بين الغابة المتشابه عند قدم ملحمة، غير أن هنالك نقطة في غاية الأهمية فيما يخص المنظر العام، خاصة فيما يتعلق بعملي الجغرافي. كان أقصى موقع وصلته حينما تتبعت الحدود من الاتجاه المعاكس هو قرية العارضة، والتي من عندها اتجهت غرباً على امتداد طريق (أبو عريش). وعليه، فمن الأهمية لمسوحاتي الحالية أن أنهي بعض

النقاط بالقرب من العارضة لتكملة الدائرة. كنت سعيداً بالتعرف على قمة بركان ثانوية تابعة لدغم أمامنا، ناحية الشمال الغربي. يتضح الآن أنه لم يبق أمامنا الكثير لنقوم به وبإحساس من القناعة خرجت لزيارة الأعمدة التي لا تزال موجودة.

بدا وادي دحن أمامنا وكأن لونه أسود بسبب أشجار الغابات -وهو منظر غير متوقع- واتضح لنا ونحن نقترب من عمود معقر أم سيد (رقم ٢٦أ)، وهو هدفنا المباشر، أن الرقعة الزراعية لقرية شرم اليمنية قد امتدت بكرم عبر الجانب السعودي للحدود. ربما كان هذا، هو السبب الرئيس لإزالة علامة ضلمة الحدودية. يقف عمود معقر أم سيد الحدودي في قطعة مكشوفة في الغابة، كانت قد زرعت في وقت ما في الماضي، وهي الآن مهجورة. وصلنا فيما يليه إلى وادي سلمان وعبرناه هابطين ناحية دحن، من سفوح كل من خبثة وملحمة العليا، من الجانب اليمني. تقع الغابة التي رأيناها أمامنا بين الجانب اليمني ودحن وهي غابة حقيقية ذات أشجار ضخمة منتشرة من أشجار أبراه ذات الجذوع السميكة الغليظة والأوراق التي تذكرني بأوراق أشجار كستناء الحصان.

يمر خط الحدود، فيما يلي منطقة كثيفة الغابات، وقبل أن نصل إلى مجرى دحن، بين سلسلتين منخفضتين هما مشف الغربي ومشف الشرقي في أرض سعودية وأرض يمنية بالتوالي، داخل حدود عمود بين المشافين الحدودي (رقم ٢٥أ) ويمر بينهما. كان هذا المعلم عبارة عن صف من كوم حجارة بين بعض الشجيرات في الحوض ولم يكن هنالك ما يؤخرنا عن الاستمرار في اتجاه الشمال لنصل إلى عمود بحسة الحدودي (رقم ٢٤أ) بالقرب من قرية يمنية بالاسم نفسه. وجدنا مزارع قرية شبرا، قبل أن نصل إلى العمود الحدودي هذا، وهي قرية تقع في

منتصف المسافة إلى تل خبتة، قد امتدت داخل الأراضي السعودية على امتداد الأجزاء السفلى من مجرى مسيل حيوان الذي ينحدر إلى دحن. كان عمود بحسة يتكون من حجر واحد ملقى فوق شجرة مظ منخفضة، وقد نمت شجرة صبار من أعلى. كان مجرى دحن الآن على بعد نصف ميل أمامنا وفيما يليه تقع سلسلة قرنة – سودة، على مسافة ميل واحد.

وصلنا في ذلك الاتجاه (شمال غرب) إلى عمود دريدبية الحدودي (رقم ٢٣أ) وبه قسما القرية على يميننا على بعد ٢٠٠ و ١٠٠٠ ياردة بالتتالي، وتمتد مزارعهما إلى الجانب الأيسر للوادي. تقع قرية مطارق السعودية على مسافة نصف ميل على الجانب الأيمن في اتجاه الغرب بينما لا تقع قريتا أضار ومسلح على مسافة بعيدة من الجانب اليمني من دحن. وصلنا إلى الجانب الأيسر لدحن في أقل من عشر دقائق والشمس تغيب وراء الأفق، ثم عبرنا بطنه العريض الضحل الرملي المزدهر بشجيرات الشار، والذي تتخلله بدائل مؤقتة للمتاريس، مكونة حقولاً مؤقتة في مساحات غطتها السيول الأخيرة. كانت هذه الحقول واضحة في اتجاه أعلى الوادي وعلى جانبه، حيث يبدو أن اليمنيين أكثر شراسة من جيرانهم السعوديين، الذين انصرفوا تماماً عن أي فكرة لمحاولة زراعة المحاصيل في هذا الوادي. وصلنا إلى عمود سودة الحدودي (رقم ٢٢أ) ويقع قريباً من الأكواخ الحجرية التي تكون قرية مطارق، واستقر بنا المقام بجواره لنعسكر هذه الليلة. لم أكن أعلم أننا سنمكث هنا مدة ثلاثة أيام.

أحسست بقدوم هجمة الحمى بمجرد استقرارنا في المعسكر. لقد وصل وفد شيوخ قبيلة عبادل وتقع أرضهم أمامنا، ومعهم هدية لا تقل عن سبع شياه، غير أن الحمى كانت أسرع ولم أستطع أن أقابلهم، وسرعان ما تمكنت مني

هجمتـها. كنت ضحيـتها عديم الحيـلة بقية الأيام التالية، وكـانت الأحداث التي أعيـها هي نـقل فراشي في يوم وصـولنا من العراء المكشـوف إلى ظل شجـرتين كبيـرتين من أشجار أبراه عند حافـة الأرض الشبيهة بالمنتـزة، ثم نقله ثانية من هنا بسبب الأمطار في صباح اليوم التالي، إلى داخل إحـدى العشش الصغيرة لما قصد به أن يكون قرية – لا يسـتطيع رفاقي عمل شيء غـير مراقبـتي بقلق، وقد أرسل أمير الخوبة مراسله مستعجـلاً إلى جازان لطلب أي مساعدة يمكن الحصول عليها. استـجابة لهذا، فـإن أميـر جازان، الذي لم يستطع عـمل أي شيء، أطلع الملك باللاسلكي بأنه يبدو أنني أحتضر.

كنت طريح الفراش بلا حـراك من الساعة السـابعة صبـاحاً من يوم ٢٧ يناير وحتى الساعة الرابـعة مساءً من يوم ٣٠ يناير، (مدة سبع وخـمسين ساعة) وأنا لا أحس بما يدور حولي. ولم أتناول طعاماً في اليوم الأول، غير قليل من اللبن وقد تقيأته فوراً، ولم أتناول شـيئاً في اليوم الثاني غيـر قليل من الأرز وحساء الدجاج الحبشي وقـد شعرت بالتحـسن. كنت مستمـتعاً بأول غليون لي حـينها، إلاَّ أنني استغرقت سـريعاً في إغفاءة الحمى، صحوت في الساعـات الباكرة وكأن لم يكن هنالك شيء خطر أصابني.

لم أرغب في إزعاج رفـاقي النائمين، ولم أستطع النوم أكـثر، وكنت أراقب البعـوض والفئران التي شـاركتني خلوتي في هذه العـشة، كانت دائرية مـبنية من الحجارة، ترتفع إلى سـتة أقدام، وكذلك كان قطرها، وبها باب شـديد الصغر لا يرتفع لأكثر من ثلاثة أقدام. كانت نظيفة جداً ومضادة للماء غير أن بقعاً من المطر عبرت عن طريق منافذ التهوية على جانب البناء، كانت معدة لتكون جافة، وحتى بزوغ الفجر لم يكن لديَّ ما أشغل نفسي به إلاَّ مراجعة الموقف الذي نتج عن هذا

الانقطاع السيء الحظ للبرامج. تفصلنا الآن ثلاثة أسابيع عن موسم الحج والذي عزمت النية على أن أعود من أجله إلى مكة، وكان أمامنا ما لا يقل عن ٣٠٠ ميلا يجب تغطيتها. كان من الواضح تماماً لي، حتى دون الرجوع إلى رفاقي للتداول، والذين سيعترضون على أي قرار آخر، بأن فحص القسم الصغير المتبقي من الحدود يجب أن يصرف عنه النظر. كان هو القدر، وليس عزيمتي، وهو الذي فرض هذا الحد لجولاتي.

انتظر شيوخ العبادلة معنا بإخلاص، وكنت شديد الأسف أن أخذلهم. لم أودعهم إلا بعد ما استخلصت منهم كل المعلومات التي لديهم عن خط الحدود بين هذا الموقع وعمود نيد فضة (رقم ١٩أ) الذي كنت قد حددته في طريقي إلى الأجزاء العليا من وادي جازان قبل أسابيع. كان ذلك يقع داخل أرض قيس التي يفصلنا عنها قسم صغير من الشريط الحدودي، يفصل بين قبيلة عبادل وبين جيرانهم اليمنيين. يشار إلى عمود السودة الحدودي أحياناً باسم مطارق، غير أن شيوخ العبادلة يعرفونه فقط باسم جبانة لسبب لم أتأكد منه. تمتد الحدود من هذا الموقع إلى مسافة ٥٠٠ ياردة تجاه الشمال الغربي ناحية النهاية اليسار لسلسلة سودة البازلتية، والتي تنحدر معها سلسلة قرنة إلى أسفل على الجانب البعيد لسهل العارضة.

كانت هذه النقطة وبالاتفاق نقطة تحول في الحدود على الرغم من أنها غير معلمة بعمود، ومنها يمتد الخط إلى موقع يبعد ٨٠٠ ياردة إلى الشمال من معسكرنا على الجانب القريب من قمة قرنة. يقف هنا عمود قمعة أم جريبا (رقم ٢١ أ)، حيث يدور الخط لمجرى دحن عند قرية غرلغة السعودية على بعد نصف ميل تجاه أعلى الوادي وقليلاً ناحية الشمال الشرقي. لا يوجد عمود هنا ولا في

الوادي والذي اتفق على أن يكون خط وسطه مسافة ميل ونصف الميل تجاه أعلى الوادي ناحية الشمال هو الحدود. ثم يدور الوادي والحدود شرقاً إلى موقع دخول شعيب رحب من جانب الأرض اليمنية في ذلك الاتجاه. لا يوجد عمود حدودي حتى هنا، وذلك كما يقول محدثي، إن عبدالله بن شرقة قد أقنع نفسه بتسجيل النقاط المختلفة للشريط دون تعليمها لأجل الأجيال القادمة. يمتد الخط هنا –مهما كان الأمر– شمالاً إلى موقع آخر غير معلّم يسمى دوير أم حريق في مضيق يقع بين قمتي جلحان وحبرا، ومنهما إلى عمود عار أم جميلة (رقم ٢٠أ).

لم أستطع استخلاص أي أخبار صحيحة فيما عدا هذا، فيما يخص الحدود، من العبادلة الذين كانت حدود أرضهم –وهي متماشية مع قيس– تعلَّم بهذا العمود الأخير. لم تكشف أبحاثي عن علامات حدودية معترضة بينه وبين عمود نيد فضة الحدودي، ولغرض الترقيم المتسلسل أستطيع فقط افتراض أنه ليست هنالك أعمدة وسطية. وعلى هذا الأساس فإن عمود عار أم جميلة يجب أن يمنح شرف أنه العمود المركزي لكل الشريط الحدودي إذ به ١١٩ علامة رسمية معترف بها على كل من الجانبين، بعدد إجمالي هو ٢٣٩، منتشرة على مسافة عدد مماثل من الأميال من البداية للنهاية. كانت المسافة من الساحل إلى عار أم جميلة، على الحدود، حوالي ١٠٠ ميل لتصل إلى المستوى الأعلى لوادي جازان نفسه وهو الخط الذي يفصل بين قيس والعبادلة.

بكل أسف، ومع تقديم مكافأتي لممثلي العبادلة لكرمهم الأميري ولصبرهم خلال الإقامة المؤقتة الجبرية والطويلة والعديمة الفائدة في معسكرنا البائس، ألقيت نظرة وداع على هذا الجوار الوعر وهو أقصى ما تمكنا من الوصول إليه، وأدرت ظهري إلى الحدود مع الإحساس بأن عملاً عظيماً قد انتهى. لقد تم وضع الحدود

بين العربية السعودية واليمن على الخريطة أخيراً، وفي الساعة ١٠,٤٠ صباحاً، في اليوم الثلاثين من يناير بدأنا رحلة العودة إلى الوطن. عبرنا وادي دحن بعد عشر دقائق بعد ذلك، قليلاً أسفل الموقع الذي عبرناه فيه قبل أيام سابقة. امتدت غابة أشجار الأبراة على جانبيه وتتخللها مجموعات كبيرة من نبات الشار، إلى أسفل الوادي في اتجاه روابي عاصم، التي في نهاية الأمر تنحرف تجاه وادي دحوان. مررنا من حين لآخر بمجموعات من الرعاة في هذه الأرض الشبيهة بالمتنزه، ومعهم قطعان ضأنهم، وبعد حوالي ميلين من هذه المسيرة الممتعة خرجنا من منطقة الغابة إلى سهل عريض لنجد قرية خشال أمامنا في حضن الشجيرات العادية، فوق سلسلة عارية من جلاميد بازلتية عظيمة. كنا نسافر في اتجاه الجنوب الآن، ومررنا بمقبرة من قبور صغيرة مغطاة بحجارة صغيرة سائبة، متجمعة حول ضريح من أبعاد أكبر ودائري الشكل بجوار شجرة على جانب الطريق، كانت أفرعها محملة بالزهور وأعلام صغيرة بيضاء ولعله المقر الأخير لأحد رجالات الدين.

دخلنا فيما يلي هذا إلى أرض واسعة ذات شجيرات، جرى الطريق خلالها عبر خطوط متعرجة عديدة وكأنها طريق سريع مطروق - كان هذا هو الطريق الذي يعبره الزوار اليمنيون إلى الينابيع الحارة وسوق الفواكه في الخوبة. كان هذا الإقليم الشجيري الذي يملأ الفراغ بين دحن ودحوان ويمتد من قدم ملحمة إلى الخارج حتى جوار عاصم، من أفضل القطع الغابية التي رأيتها في سهل تهامة، وكان مليئاً بكل أنواع الطيور المألوفة، إلى جانب هذا، مررنا بمجموعة من النسور وهي ترتاح بعد وجبتها على جثة حيوان مات على الطريق، بجوار سمة صخرية بارزة تعلم الطرف الجنوبي لسلسلة ملحمة. اتصل الطريق المطروق العادي الذي

يقبل من ناحية جابري، قليلاً فيما يلي هذا الموقع، مع طريقنا داخل مساحة مزروعة كبيرة تمتد مسافة ميل واحد من قدم ملحمة وتنتمي إلى آل اسراعيل وهو تحت قسم لقبيلة كعوب.

وصلنا بعد عشر دقائق على الجانب الأيمن لوادي دحوان وتوقفنا للاستراحة مدة ساعة لطيفة وقد كان بطنه لا يزال محتفظاً بالمياه، فوق رماله وبين جانبيه المعشبين وبعض الجلاميد التي اخترقتها السيول إلى هنا من الجبال. تحتل قرية عبادية في واجهتنا، وعلى مسافة مع اتجاه الوادي إلى أسفل، وتشتمل على عشش مبنية من الأعواد، مسافة مكشوفة في الغابة مع مساحات واسعة للزراعة منتشرة في كل اتجاه. حيَّانا المزارعون هنا، كما يفعل آل حرث بصفة عامة، أثناء مرورنا بهم، برفع أيديهم من بعيد، كما في نجد، غير أنهم لم يبدو أي اهتمام بما كنا نفعل. حضر رسول المبتعث من الخوبة ليقابلنا هنا ومعه شحنة كريمة من الباباي، وواصلنا رحلتنا في صحبته. تخففت الغابات الشجيرية شيئاً فشيئاً ونحن نتقدم حتى وصلنا إلى قرية قرن النصر حيث كان الناس مشغولين بالحصاد فوق مساحات كبيرة للدخن (الذرة) والتي كان في وسطها بعض مساحات للفاصوليا تزحف فوق سطح الأرض. لاحظت أن أعواد الذرة كانت نحيلة جداً مقارنة مع تلك المحاصيل الغنية في نجران.

وصلنا إلى ذهبان بعد مسيرة أقل من الساعة الواحدة من دحوان، والذي كان في هذا الوقت جافاً على الرغم من أننا كنا نرى مياه الغيل الجارية المتقطعة تواصل انسيابها على بعد ١٠٠ ياردة مع اتجاه الوادي، في بطء مع وجود طبقة زبد على سطحه. تقع إلى القريب من هنا قرية نمير الصغيرة والتي في دائرة غابتها تمكنت من اصطياد طائر الباز. كانت الجبال العالية مغطاة بالسحب غير أن مسجد ناضر

الأبيض برز واضحاً، وهو من أفضل العلامات الأرضية في هذا المحيط. كان الاتجاه العام للمجرى إلى أسفل هو ناحية الشمال الغربي، متجهاً إلى هضبة تحنان البارزة، بعد عبورنا للوادي بين المحاصيل الشاسعة لقوة. بدأ محصول الذرة عند ضواحي هذه المنطقة فقيراً، إلاَّ أنه أصبح أكثر كثافة حينما اقتربنا من مجرى حلب، وكانت أكوازه غنية.

اتصلنا مع المجرى عند منحنى في مجراه على بعد ٢٥٠ ياردة إلى يسارنا في الزاوية الكثيفة الزراعة عند المنحنى. تتماشى حقول قوة مع الخوبة فوق عرض يصل إلى ميلين يمتد حتى حافة التلال، ولم يمض وقت طويل حتى عبرناها كلها لندخل الخوبة نفسها، حيث كان يوجد زوج من العشش مثبتة بالطين مبنية على قاعدة طينية كان قد تم تخصيصها لإيوائنا.

تقع الخوبة على ارتفاع ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، فوق صخرة منخفضة على الجانب الأيمن للوادي، الذي كان ماؤه ينساب في هذا القسم، والذي قد انحدر من سيل عنيف مساء الأمس نتيجة للعاصفة الرعدية التي دفعتني إلى داخل العشة الصغيرة في مطارق. لم يكن السيل ضخماً، على كل حال، ويبدو أنه لم يفعل أكثر من إحياء مياه الغيل التي يعتمد عليها أهل الخوبة للحصول على مياههم. كانوا في معظمهم من قبيلة حرث، مع عدد كبير من الزنوج، غير أنه توجد عائلتان أو أكثر من الأشراف مستقرون بصفة دائمة هنا. يزعمون أنهم قد هاجروا إلى هنا حينما كانت بلدة وطنهم ضمد، التي هي الآن مدمرة ربما بسبب سيل، غير جاهزة للخدمة الفعلية. قام بزيارتي ثلاثة أشقاء من أسرة واحدة، هم علي وحسين ومحمد، كلهم ذو مظهر مميز مع أجمل شعر على الرأس رأيته في هذه الأنحاء. كان شَعْراً مجعداً وكانوا لا يضعون غطاءً صناعياً فوق رؤوسهم.

عاد أكبرهم (محمد) من زيارة إلى جازان حين استدعاه الأمير لينضم إلى لجنة الحدود الدولية التي تكونت لمعالجة موضوع نزاع حدود السودة. أخبرني محمد أن القاضي عبدالله بن الوزير قد رجع إلى الحديدة، بعد انتهاء مهمته في جازان وأن جيولجيو شركة النفط (شركة امتياز النفط المحدودة) قد وصلوا إلى جازان في طريقهم إلى جزر فرسان، حيث سيقومون بدراسة احتمالات النفط. أخبرني أيضاً أن الشاحنة التي قمنا بإرسالها من أبام سول، تتوجه بالعودة إلى الخوبة عن طريق صامطة، قد رجعت إلى جازان وتعطلت هناك على أمل رحلة ثانية داخل الصحراء. كان أسوأ أخباره أن سيارتي الخاصة التي أرسلتُ باللاسلكي بطلبها من جازان لهذه الرحلة، قد وصلت هناك من جدة وقد انكسر محورها الخلفي، وتعطل معها بريدي الخاص الذي كنت أتطلع إليه بشغف.

لم يكن أمامنا إلاَّ القبول بفكرة عودتنا إلى جازان على ظهور الحمير. لم تكن فكرة مريحة بعد هجمات الحمى التي أصابتني حديثاً، ولم أنصرف وكأنني معاق عن تناول العشاء، حينما تناول الأمير العشاء معي وجهاً لوجه في عشتي. لم يحضر الأمير الطعام فقط، بل أحضر ثلاث علب كيروسين فاضية لتستخدم كمائدة، وكذلك ملاءة نظيفة بيضاء لتغطيتها. لم يكن يستطيع إحضار المقاعد للجلوس عليها، غير أن هذا لم يحرمني من الاستمتاع من تقديم هذا الطعام على المائدة، الذي يشتمل على لحم الضأن والأرز المتبَّل، والدجاج المنكه بالكاري والبيض بأشكال مختلفة والخضراوات والفاكهة وغير ذلك من الأصناف. كانت كلها جيدة الطبخ ذلك لأن عليّاً قد اختار فتاة زوجاً له من تهامة لتشاركه منفاه. أخبرني بأنه وعلى الرغم من أنه من مواطني شعرة، إلاَّ أنه لم ير المكان وذلك لأنه -كما كان والده- قد ولد في مكة التي كانت أبداً موطنه.

كان من بين الزوار الآخرين الذين قابلتـهم أثناء النهار، ضابط الدخل المحلي والجمـارك، الذي جلب لي بعض المعلومات المفيـدة حول عمله. كان أكـثر المواد التجارية أهمية، ويعبر خلال هذا المركز هو البن اليمني وقشوره التي يصنعون منها شراباً يسمونه قشـر، وشراباً ممتازاً يسمونه تسين، إذا أضيفت إليـه القرفة. عبرت خلال الشهر المنصرم ما يقدر بـ ٣٠٠ قنطار من البن في طريقها إلى جازان ومكة، وكان متوسط العائد الدخلي للشهر خلال هذا المركز هو ١٠٠٠ ريال (حوالي ٧٥ جنيهـاً استـرلينياً). أخبـرني بأن طريق ظهران لم يكن مـحبـوباً للتجار الـيمنيين ويفضلون هذا الطريق عبر تـهامة، بسبب يعزى جزئياً إلى مـشاكل العملة، وثانية إلى أن القافلة العائدة لا تجـد بضائع تعود بها. أما في أسواق تهـامة وبخاصة في جـازان، فإنه يمكن شـراء مـختلف البـضـائع، بينما يمكـن الحصـول على الريال الضروري للدفع من البيع المحلي لبعض البضائع المستولاة. كانت (صامطة) مركزاً جمركياً آخر أقل أهمية من الخوبة التي تضمنت بالطبع المركز الخارجي في جابري. توجد المكاتب الحكومية وثكنات الشرطة في قلعة مهيبة ورثت عن النظام الإدريسي إلا أنها جددت وصينت بدرجة واضحة.

كانت الماليـة في بناء مسـتقل، بينما كـانت المراكز التـجارية وميـدان السوق واسعة دون شيء يميز بينها. كان المسجد الرئيس بناءً بسيطاً، بينما كانت كل المنازل العادية من الطين والعشش. لم أشـاهد مزارع الأندقو (النيلة) أو مصانع الصـبغة، إلاَّ أن الصناعة المزدهرة المحلية كانت عصر الزيوت خاصة السمسم. رأيت معصرة أثناء أدائها العمل عند مدخل المعسكر الذي استضـفت فيه – كان أمراً بدائياً جداً، يقوم بتشغيلها جمل معـصوب العينين يدور داخل دائرة مصغرة تحت غطاء سقف من الأعـواد. يربط الجمل إلى عـمود يـحرك حـجر الرحى الذي يدور فـوق إناء حجري يستجمع الزيت أثناء سيلانه.

لم تكن الخوبة سوى قرية كبيرة على الرغم من أنها مركز إداري، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة كما كانت جارتها قوة أيضاً صغيرة، أما بقية القرى في الجوار فهي ذات أهمية ضئيلة. لم يكن هنالك ما يتطلب تأخيرنا في هذه الأجزاء عدا ينابيع وغرة الحارة، والتي توجهنا نحوها مبكرين في آخر أيام شهر يناير، ممتطين الحمير وتحت سماء بدأت تنذر بالعاصفة من جهة الغرب، على الرغم من أن الجبال العالية كانت مكشوفة من السحب. وصلنا بعد مرورنا بالمقبرة التي تفصل الطريق الرئيس عن قوة، وفي خلال ٢٥ دقيقة إلى الينابيع، وهي آخر أجزاء الممر وتقع داخل أرض ذات شجيرات خفيضة أهمها العرد والترف والسنا والشار المتكبر، مع بعض أشجار الأثل الجيدة النمو. كان الوادي منساباً حين وصولنا بجدول مزدوج يفصل جزئيه شريط عريض جاف.

قادنا الانسياب الثانوي إلى بطن مسطح من ألواح صخرية تعترضها مساحات من بروزات غريبة ذات لون وردي تحف بالجانب الأيمن. ربما كان هذا الصخر من طبقة بركانية، وكان في هذا الترسب أن وجدنا بركة مشهورة قطرها ستة أقدام وعمقها ١٨ بوصة. هنا يسبح الزوار في مائها وقد سجل مقياس الحرارة الذي أحمله معي ١١٥,٧ درجة، ويسيل إلى داخلها عدد من الجداول الضيقة تنبع من العيون الحقيقية.

سجل مقياس الحرارة ٥٠ درجة مئوية (١٢٢ درجة فهرنهايت)، ولكنه لم يستطع التعامل مع هذه العيون. كان الماء يغلي من عند المرجل أسفله، وكانت شدة الحرارة لم تمكنني من أن أمد يدي فوقه لثوان قليلة، واقتنعت بأن درجة الحرارة لا بد أن تكون في نطاق الغليان. لا أعتقد أن هذه البركة تستحق أن أستحم فيها، واكتفيت بغسل يدي ووجهي وقدمي بمائها الدافئ.

واصلنا مسيرتنا عبر حقول للذرة تمتد من الجانب الأيسر لمجرى وغرة مسافة معتبرة وتدخل إلى الصحراء النموذجية ذات الشجيرات القصيرة، والتي صنع منها المزارعون طرقاً داخلية متى ما وصل السيل إلى ما يلي حدودهم العادية. لاحظت أن المحاصيل التي تقع إلى البعيد من الجدول قد تم حصادها. يعزى هذا إلى أن الأراضي الجافة ليست واعدة لنضج لاحق، ولذلك تم الحصاد قبل أن تجفف الطبيعة السنابل. دخل الطريق القادم من صامطة، بعد مسيرة ٢٠ دقيقة من الينابيع الحارة، إلى طريق جازان من جهة الجنوب الغربي في وسط غابة طلح كثيفة حيث تسود أشجار الوهط بأشواكها الشرسة.

كانت توجد مساحات زراعية منعزلة حتى في هذا الموقع النائي، بالقرب من قريتي مزبر ورعيلي على الجانبين ونحن نتقدم في موازاة مع صفحة سلسلة دخان، على بعد ميل واحد على يسارنا. التقى الطريق سريعاً مع مجرى شعيب ثمران الكثيف الشجيرات، وهو أحد روافد وادي لية ثم ابتعد سريعاً عنه ليتحاشى أرض صخرية متموجة من الشست والكوارتز تمتد إلى الوراء إلى شريط من تلال تشتمل على كل من دخان والرميح وجحفان. سرنا على امتداد الحافة لهذه الأرض وكانت غابة خبت على يميننا. انكشف أمامنا منظر عظيم لسهول تهامة، عبر الفجوة بين نهاية هذا البهو الطبيعي ومجموعة تلال معقم (غراب). كان خلفنا منظر آخر جميل للسهل ذي الغابات السفحية الذي يمتد من الخوبة إلى العارضة من بين هذه التلال الخارجية والجبال العالية ناحية الشرق.

وصلنا إلى قرية أم الدبة، على بعد مسافة ساعتين على ظهور الحمير (حوالي ١٠ أميال) من الخوبة، حيث كان استقبالنا حاراً من جهة الصديق القديم محمد الطراد، في منزله الكبير المبني من الوتل والأعواد. كانت القرية التي تتكون

بكاملها من العشش ذات موقع لطيف. داخل انطباق لأرض صعبة وترتفع إلى ٧٠٠ قدم فوق سطح البحر. يمتد من عندها طريق فوق الصخور إلى صامطة، بينما يجري طريق آخر، والذي سلكناه، وهو الطريق الرئيس عبر سوق الأحد إلى جازان. سوق الأحد هذا هو المركز القبلي للمسارحة، الذين يملكون أرضاً واسعة شمال وادي حلب ورئيسهم هو الشيخ موسى السويدي.

واصلنا سيرنا بعد فترة استراحة استغرقت ساعة ونصف الساعة، ومررنا بأرض واسعة من حقول الذرة، جيدة المساطب للإمساك بمياه السيول، تعترضها أجمات هنا وهناك من شجيرات عنيدة مع العديد من أشجار الضبر التي ارتفعت سيقانها الغليظة من ١٢ إلى ١٥ قدماً إلى رؤوسها عديمة القرون. سيطرت الغابة سريعاً على ما يمكن أن يصبح أرضاً زراعية على جانبي وادي ثمران، الذي عبرناه في وقت لاحق عند موقع كان بطنه الصخري قد اختنق ببرك الماء. وقف عش ضخم لطائر (أبو منقار) عند تفرع شجرة صغيرة.

واصلنا السير فوق أرض متموجة، تنتشر فيها الشجيرات الشائكة وبعض المساحات الزراعية تابعة لقرية مندراق الصغيرة على يميننا وفعلياً على الجانب الأيسر لمجرى رزيعة على مسافة نصف ميل على الجانب الآخر من طريقنا. مررنا في وقت لاحق بقرية معران على يسارنا ثم إلى الوراء وعلى بعد ميل واحد، بقرية مسوان على الجانب الأيمن لوادي لية، ويقع تل جحفان وراءها مباشرة. كان السطح الذي نسير فوقه متخللاً بكتل من حجارة بازلتية مكونة سلسلة متعارضة على طريقنا. وصلنا بعد ساعة من مغادرتنا أم الدبة إلى الجانب الأيمن لوادي لية، الذي يجري هنا في وادي كثيف الشجر في اتجاه الجنوب الغربي. سلكناه إلى فترة عبر مزارع كل من مسوان ومحادف، وهي قرية متعرجة طويله تقع إلى يسارنا.

ابتعدنا تـدريجياً من المجرى فوق أرض تنتـشر فوقهـا قطع البازلت، وفيهـا عبرنا بشجرة ذات حـجم ضخم وقد انتزعت من جذورها بـواسطة رياح شديدة. كانت أغصانها لا تزال خضراء. كما توجـد هنا مساحات من مزارع، حتى خروجنا إلى سهل مسطح ينحدر بـلطف من الحصى الكوارتزي مع بروزات من البازلت وبعض الشجيرات القليلة الشائكة ومعظمها من الوهط والسلم.

تقع قرية قفل التابعة للأشراف على بعد نصف الميل ناحية الجنوب من موقعنا على الجانب الأيسر للية. إلى جانب قرية تسمى مقايم أحمر ناحية الغرب، وقرية ثالثة تسمى منشية على بعد نصف الميل ناحية الشمال الغربي. تقع قرية أخرى من وراء هذه القرى وعلـى طريقنا وتسمى كدش، وقـرية وتد على نفس البـعد فيـما يليهـا، ثم وصلنا بعد ذلك إلى قرية (أبو حجـر) الكبيرة حيث توقـفنا مدة نصف السـاعة. كـان الريف من حولنا ولمسـاحات الأمـيال مـغطى ببسـاط أخضـر من المحاصيل النامية التي تمتلكها هذه القـرى. لم تكن المحاصيل واعدة. تمت زراعتها بعد انحسار مياه السيول على أمل أن يأتي سيل آخر لإنعاشها وإيصالها إلى مرحلة النضج، وإذا لم يحـدث ذلك، فـإن الدخن يـنضج دون امـتلاء وتـكون السنابل صغـيرة. وجدنا علـى جانب الطريق في (أبو حجـر) أن بعض المحسنين قـد أقام سبيـلاً للماء من جرة فخار ضخـمة لعابري السبيل. كـانت هذه القرية واحدة من المراكز الرئيـسة لقبـيلة بني شبيل والذين تكون حـدودهم مع المسارحة في مـجرى حلب، بينما ينتشرون جنوباً إلى وادي تعشر المتماشي مع حرث عند قفل.

حاولنا شراء بعض البيض، ولم نجـده وتأكد لي أنه لا يوجد بيض ولا دجاج في القرية. يكره العرب الدواجـن ومنتجاتها لكونها في رأيهم لحم رخـيص، غير أنه وبصفة عامـة، من الممكن الحصول عليها عند الحاجة في الجزيرة العـربية بصفة

عامة. ولكن في تهـامة يبدو الأمر محرَّماً، ولعل هذه هي أول مـرة أقابل بها هذا الأمر. اسـتعدنا بعض النشاط بوقـفتنا القصـيرة هذه والتي تناولنا فيهـا الشاي ثم واصلنا مسيرتنا. وكانت مؤلمة على ظهور الحمير، في مواجهة أشعة الشمس، التي تكون عادة حارة جداً عند الظهر في سهل تهامة. بدأت يداي تتقرح أيضاً بسببها.

تقع قرية أخرى كبـيرة من قرى بني شبيل تسمى مـرح، على بعد ميل واحد إلى الجنوب الغربي من (أبو حجر)، بالقرب من وادي لية، كما أمكننا رؤية منجرة على بعد ثلاثة أميـال ناحية الشـمال الغـربي في اتجـاه القمم البركانية لقمتين، -وبالفـعل- فـوق طريق بديل من الخـوبة إلى جـازان عن طريق تلال عـقـبـة – غراب. كـان ارتفاعنا العـام في هذا الموقع حوالي ٥٠٠ قـدم فوق سطح البـحر. لاحظنا أهالي الريف وهم يعودون إلى منازلهم من سـوق الأحد، أثناء تقدمنا من هذه القرى وقرى أخـرى منتشرة على جانبي وادي حلب، وقـد كان اليوم هو يوم الأحد.

مررنا أولاً بقرية رمدة الكبيرة التي تتألف من مجموعات متلاصقة من عشش الوتل وعشش الأعواد، وتنتمي هذه القرية إلى الضوامرة قسم من قبيلة المسارحة، على الرغم من أنهم داخل أراضي قـبيلة بني شبـيل. تقع هذه القرية على مسـافة ميل واحـد قبل الوصـول إلى وادي حلب، التي يتكون حـينما وصلنا إليـه، من مجريين رمليين يبلغ عرض كل منهما ١٠٠ ياردة، يفصل بينهما حزام عريض من أشجار الطرفاء. تزرع في كل من المجريين مساحات واسعة من الدخن على جانبي الطريق المائي الضـيق، وهو الآن جـاف. أزعج دخـولنا إلى هذا المكان عـدداً من الأرانب البرية -كـما تكاثفت أشـجار الطرفـاء والترف والسنا والكثيـر من عشـبة الثمان. تبـدو كل هذه الأرض وكأنها دلتا ضـخمة أكثر منهـا بطن وادٍ، كما يدل

المجرى المزدوج عـلى تغلب السيـول الأخيرة، ربما هـو الحفاظ على ذكـرى تاريخ قديم كان وادي حلب ينطلق فيه من هنا إلى البحر.

وصلنا سـريعـاً إلى رف منخـفض، وجدنا أنفـسنا عنده علـى حافـة المزارع الواسعة التي تملكها قـرية قيم، تسمى عادة قيم الأحد، لتـميزها عن قرية بالاسم نفسـه بالقرب من الخوبة-. كـان أهلها يسحبـون الماء من البئر ونحن نعـبرها في سرعة لنصل إلى قـرية بيطارية الكبيرة حيث قـررنا أن نعسكر فيهـا لقضاء الليلة. وصلنا إلى هناك بعد غروب الشمس بساعة، حوالي الساعة السابعة مساءً. وجدنا أجنحة قد خصصت لنا في فناء واسع ونظيف ومسور بالأعواد إلى ارتفاع الكتف. كان توجد فـيها مساحـة مربعة عريضـة مرتفعة من الطين لعشـة على شكل خلية النحل من الوتل والطين. ويكون الطين قـاعدة ومثبـتاً للجدران الداخليـة لارتفاع قامـة. كان الوتل منسـوجاً من الأعواد علـى الجانب الخارجي لكي يصـبح البناء صامداً للماء وصامداً للشمس. تـتدلى من قمة البناء سلسلة من الحبال ممسكة بكل ما يتعلق بالبناء بقوة.

كان الشيخ المحلي وشقـيقه يتسوقان في سوق الأحـد، على بعد ميل ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من مـوقعنا وبعيداً عن الطريق الرئيس، إلاَّ أنهمـا أسرعا بعد عودتهما منه ليقدما لنا طراز كرمهما الواسع في وسع منزلهما العامر. اعتذرت لهما عن قـبول عرضهمـا السخي الحسن النية، بعـد أن استرحت في هدوء وكنت أحس بالتعب وبالجوع، وبلا شك فقد اسـتضافانا في هذا البناء الذي لا يقل مكانة عن دار الضيافة المحلية. استغـرق وصول العشاء بعض الوقت، وسرني أنه اشتمل أساساً على الدجاج والبيض. كان هذا بالضـبط هو ما أحتاج إليه في حالة إرهاقي هذه، وبعد مسيرة طويلة على ظهر حمار والتي كانت مباشرة بعد إصابتي بالحمى.

لقد أصبح معروفاً أنه لا حسن ولا إبراهيم، مضيفى الحالـيين، كان هو الرئيس الإسمي للقرية. كان موسى السويدي، الشقيق الأكبر بين الأشقاء الثلاثة غائباً، إذ إنه قد غادر إلى مكة لأجل الحج وفي رفقته ١٠٠ من رجال المسارحة. كما عبرت كتيبة مماثلة من قبيلة بني شبيل من هذا الموقع لنفس الغرض. بدا واضحاً أنه لم يبق لدي كثير وقت. انطبع في ذهني أن حسين، الذي أكرم وفادتنا في غياب شقيقه، أنه متبلد الحس، ووجدت صعوبة شديدة في الحصول على المعلومات الجغرافية منه في صباح اليوم التالي حينما رافقني بلطف في جولة حول القرية. سألته إن كان من الممكن أن أتحصل على ماء أشربه. أعاد حسين كلمة «ماء» بصيغة السؤال. وأجبته بالإثبات أنني أرغب في شرب الماء. وكرر ما قاله أول مرة «ماء»؟ لا أدري إن كان قد استوعب طلبي، غير أنني في النهاية ناديت على سعد ليحضر لي الماء.

كان القرويون فضوليين جداً من حولنا، يتوافدون في تتابع للإحاطة بمعسكرنا، وكان كل من حسن أو إبراهيم يقوم بطردهم. وجدت أن جولتي حول مجموعة العشش مثيرة للاهتمام. كان معظم السكان من أصل أفريقي وتتحرك النساء في المعسكر بلا غطاء يعلو الخصر. كانت أجساد بعض الشابات منهن جميلة جداً غير أنه لم يكن هنالك اتجاه استعراضي بينهن وهن يقفن بجوار أبواب عششهن أو يتحركن في فناء الدار. كن طبيعيات تماماً نصف عاريات بسبب الحرارة الشديدة – حرارة رطبة وقابضة– وكنَّ تماماً لا يشعرن بالخجل، لأنه لا يوجد ما يدعوهن للخجل.

جذب ضوء مصباحي في أثناء الليل آلاف الجراد، غير أن صرصار الليل لم يكن بمثل كثافته في الخوبة. كان ارتفاعنا هنا حوالي ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر

وكانت درجة الحـرارة ٧٧ درجة عند الساعة السـابعة صباحاً. يحـصد الدخن مرة واحدة في العام في الأراضي المرتفـعة التي تعتمد كليـة على الأمطار، وبعيدة عن مدى السيـول الموسمية، بينـما في الأراضي التي يصلها السيل، وبناءً علـى نوعية السيول، فإن زراعة البذور مرة واحـدة ينتج عنها حصاد ٣ أو ٤ محاصيل. يقطع كل محصول إلى ارتفاع بوصات قليلة من سطح التربة، فـينمو بسرعة إلى حجمه الطبيعي خلال الحصاد وهكذا حتى يمتـص آخر محصول يحصد كل الرطوبة. تقع كل من قريتي المنـجارة وسوق الليل -والأخـيرة هذه مسـتعمـرة للإشراف- على الجانب الأيمن لوادي حلب اتجاه أعلى الوادي عند عبورنا.

تقع قرى المسارحـة ناحية الغرب من مـوقعنا، منها قرية العـر وقرية طواحرة بينما تقع قرية الدغارير التـابعة لبني شبيل على مسافة ثلاثة أمـيال ناحية الجنوب. ربما يطلق على قرية سوق الأحد اسم الميزاب غير أن الاسم الأول هو الشائع، ولا يعرف الاسم الثاني غير الخبراء. تقع براكين قـمتين ناحية الجنوب من موقعنا على بعد ٥ أو ٦ أميال.

بدأنا المسـيرة تحت سـماء ملبـدة بالسحب، بعـد أن تناولنا الإفطار المكون من الدجاج والبيض، وقد كان الجزء الأول من رحلتنا على ظهـور الحمير لطيفاً وبارداً. يقع ممرنا عبر منطقة مزروعة على أرض أكـثر ارتفاعاً عن الوادي، وكانت المحاصيل في معظمـها تعـيسة، وفي بعض الحـالات، جافـة تماماً قبل أن تصـل إلى مرحلة النضج. توجـد المتاريس في هذه المـنطقة بصـورة أخف، وفي مسـاحات صـغيـرة للإمسـاك بما يهطل من مطر، وكان من الواضح أنهـا خارج نطاق السـيول. تركت بعض الحقول بلا زراعة، وبعضها تم تهيئة سطحه بالمحراث، على أمل هطول أمطار

في وقت متـأخر من الموسم، الذي يمتد من منـتصف أكتوبـر إلى نهاية أبريل وهي متقلبة وبلا أمل. مررنا بعد نصف ساعة ببئـر طالبية، على مسافة من الطريق ناحية اليسار، والتي يعتـمد عليها أهل العر للحصول على حـاجتهم من الماء للشرب. كنا لا نزال على ظهور حميرنا فوق أرض ذات محاصيل ميتة أو تحتضر، والتي أفسحت المجال تدريجياً لأعـشاب ميتة وشجيـرات خفيضة ميتة أيـضاً. أزعجنا بدخولنا إلى قرية سر التابعة للمسـارحة أربع غزلان من داخل حزمة من دخن جاف. يمكن رؤية عدد من القرى الصـغيرة منتشرة فوق أرض ذات تربة رمليـة، التي يحاول القرويون زراعتـها في جهـد عظيم بالدخن، وتتحصل علـى حاجتهـا من الرطوبة من الندى الليلي في هذا الموسم.

كانت أكبر هذه القرى هي قرية جمه على بعد أربعة أميال ناحية الشمال الغربي من سر. وكان من بين الـقرى الأخرى كل من قويدة، وبيت ابن جـبران، وسويدية وغفـاقيـة، وكانت الأخيـرة هذه على طريقنا. توقـفنا مدة نصف سـاعة تحت ظل مجموعة منعزلة من أشجار الطلح بالقرب من بئرها، وهو صهريج جيد البناء مبطن ببلاط من الحجـر. شاركتنا في الظل مستعـمرة من الطيور النساجة الصغـيرة، بينما كان هنالك فـريق من النساء يقمن بسحب المـياه لقطعانهن من الضأن والبـقر. تقع قريتان صغـيرتان على مسافة ليست بالبعـيدة عن غفاقية يسكنهمـا أسر السيد، ربما بقايا من عصر الإدريسي. يطلق عليهما اسم رعشة وبيت أحمد عبده.

واصلنا سيرنا من البئر وسـرعان ما تركنا كل المزارع خلفنا، ودخلنا أرضاً من كثبان رملية متموجة. كنا نسير بقـدر المستطاع على حافتها الشمالية، وكان يرافقنا بطن وادي مسلة الضحل الرملي، وهو يمتـد موازياً لطريقنا على اليمين. ينبع هذا

الوادي من مجموعة تلال مسلة - عقبة، وينحدر ماراً بقرية بيت أحمد عبده يدخل إلى أمواج الرمل التي نمت في وسطها شجرة طلح صغيرة شوكية بما لديها من رطوبة. كانت هنالك مساحات مزروعة على الجانبين على فترات، بعضها كان مزدهراً حول قرية معلولة وقرية خمسية اللتين تتقاسمان مياه بئر مصنع على الطريق. انخفض ارتفاعنا في هذا الموقع إلى أقل من ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكي يزداد الأمر سوءاً، فقد هب نسيم أثار الرمال فيما يمكن وصفه بأنه تقليد لعاصفة رملية. واصلنا سيرنا جاهدين عبر هذا وخلال شريط منقطع من أشجار طلح بائسة، التي ربما علّمت المجرى الأصلي للوادي، على الرغم من أن أمواج الرمال قد محت تماماً مجراه. وصلنا بعد قليل إلى مجموعة أكبر من أشجار الطلح وشجيرات الأراك، والتي يجري الطريق خلالها مسافة نصف ميل ليظهر على السهل الرملي فيما يليها. مررنا بمجموعة من قطع الفخار المتناثر التي تشير إلى موقع قرى قد اندثرت، على فترات، على امتداد مجرى هذا الوادي الميت الذي يجري إلى البحر جنوب المضايا.

رحبنا في فرحة وارتياح لرؤية قرية المضايا، عندما عبرنا شريط كثبان الرمل المعترضة، وقد سيطرت مباني الحكومة على القرى الصغيرة المكونة للقرية. مررنا بالقرية الأولى، وتوقفنا عند البوابة الخاصة بالبناء المتطاول الكبير، الذي كان يضج بالنشاط في هذه اللحظة. كان موسم دفع الضرائب، وقد أقبل الرجال والحيوانات من القرى البعيدة والقريبة، وقد أحضروا معهم مستحقات قيصر[١] - جوالات كبيرة

(١) إمبراطور روماني عاش في القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي، ويضرب هذا المثل كناية عن تحصيل مستحقات الدولة. ( المراجعون).

منتفخة تحتوي على نصيب العشر الخاص بالحكومة من محصول الدخن. لم يكن من الضرورة أن تضطرب هذه المراسيم، وعليه واصلنا سيـرنا إلى الأقسام الرئيسة للقرية لننال بعض الراحة قبل آخر مرحلة لركوب الحمير إلى جازان.

جلست في ظل عـشـة حين لاحظت وجـودي شـابة جاءت إلى باب الـعشـة المجاورة. عادت سريعاً إلى العشة، ليس بدافع من الخجل، ولكن لترتدي كل الزينة التي تمتلكها. جاءت بعـد ذلك مباشرة ناحيتي وجلست دون أي إحـساس بالإحراج تجاذبني الحديث، وقد شاركتها في المحادثة شـابة أخرى أصغر منها سناً. كانتا زوجاً جميلاً واثقاً وقد استمتعت بصحبتـهما غير المتوقعة، عندما حضر بعض رجال القرية وعادت الفتاتان إلى منزليهما، ولكنهما بلا شك ستعاقبان على جرأتهما.

سافـرنا فوق سهل خبت فـيما يلي المضـايا وقد غطته أشجـار الأراك والعبل (أرطى) ويشبه دلتا وادي معيان الذي كنت قد زرته خلال رحلتي من العارضة إلى جازان. تواصل سيـرنا بعد أن قطعنا حوالي الميل على هذا الطريق، فـوق صحراء ذات شجيرات خفـيضة وعشب مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل إلى حـافة السبخة العظيمة التي تغلف جازان على جانب اليابسة.

لقد غـربت الشمس قبل نصف ساعـة وهبط الظلام علينا. بدت تلك الرحلة على الحميـر وكأنها متطاولة بلا نهـاية وكان علينا السير الحـذر فوق أرض لزجة. انزلق أحد الحمـير، لحسن الحظ ليس حماري، وسقط على جـانبه، كان هذا هو الحادث الوحـيد الذي وقع لنا. احـتفظ الرجال الذين يسـيرون مـعنا على الأقدام بمواكبتهم لسير الحمير وبدون صعوبة، علماً بأننا كنا نسرع متى ما كان ذلك ممكنا. كانت الساعة تشير إلى التاسعـة والنصف حينما ترجلنا عن حميرنا أمام بوابة منزل

الأمير. قابلنا محمد بن ماضي بترحاب شديد على الرغم من الساعة الحرجة التي وصلنا فيها، وسرعان ما أعدت لنا زوجته طعام العشاء. كنا نحتاج لذلك بعد مسيرة ١٢ ساعة ولم يمض وقت طويل حتى كنت في فراشي. لقد استغرقت رحلتنا الدائرية ١٩ يوماً.

obeikan.com